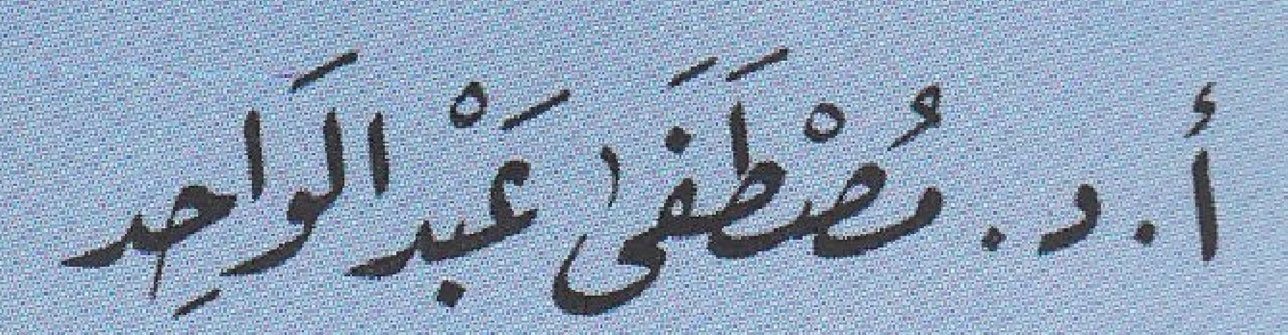


بمناسبة مرور خمسمائة عام على رحيل المسلمين من الأندلس:

كيف ضاعت الأندلس؟

نصوص تحكي سر المأساة!

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

بمناسبة مرور خمسمائة عام على رحيل المسلمين من الأندلس:

كيف ضاعت الأندلس؟

نصوص تحكي سر المأساة!

تأليف

د. مصطفى عبد الواحد

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة



دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

عبد الواحد ، مصطفى .
كيف ضاعت الأندلس؟ : نصوص تحكي سر المأساة / تأليف مصطفى عبد الواحد . - ط ١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٠م .
١٠٤ ص ؛ ٢٠ سم .
« بمناسبة مرور خمسمائة عام على رحيل المسلمين من الأندلس »
تدمك ٦ ٩١٢ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الأندلس .
٢ - العرب في أسبانيا .
أ - العنوان
٩٥٣,٧١

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجا لعقد ثلث مضى في صناعة النشر

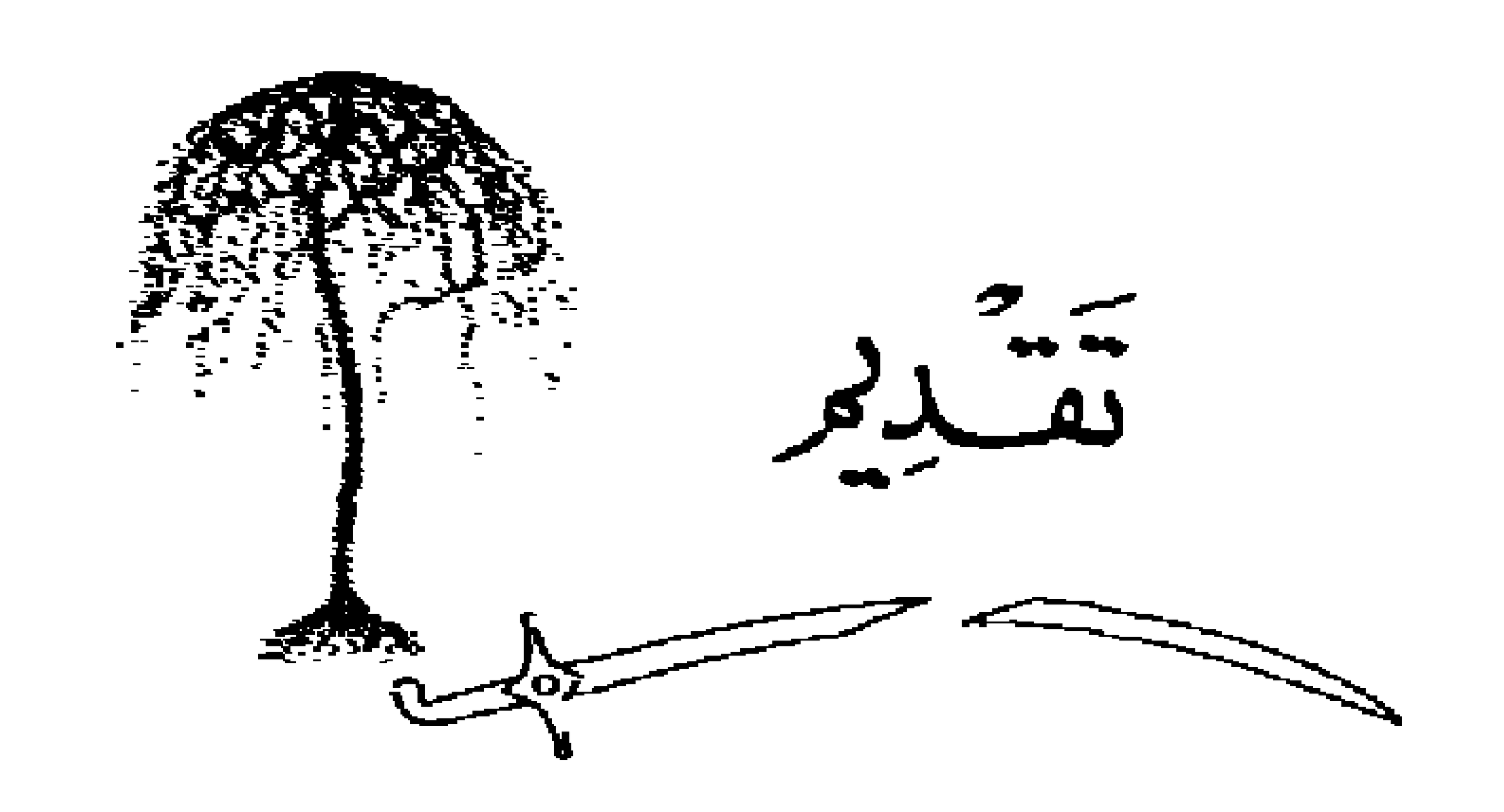
جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم



* * *





تَقْدِيم

الحمدُ للّـه مالك الملك، ومدبِّر الأمر.. الذي يبلو عباده بالخير والشر؛ فتنـةً، ويستخلفهم فـي الأرض؛ لينظـر كيـف يعملون.

والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه المبعوث رحمة للعالمين.. الذي أخبرنا أن ملك أمَّته سيبلغ المشارق والمغارب.. وأن الدنيا ستفتح عليها.. وأن فتنتها بالدنيا هي الفتنة المخُوفة.

وبعد..

فقد صادف هذا العام (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) ذكرى انقضاء خمسة قرون على رحيل المسلمين من الأندلس.. وقد احتفل الأسبان بهذه الذكرى بنشوةٍ وشماتة وتعصب.. وعلى المسلمين أن يعتبروا بهذا الحادث المؤلم، ويستخلصوا منه العظة لحاضرهم ومستقبلهم.

وهذه تأملاتٌ في نصوص من الأدب والتاريخ.. تكشف بجلاء عن أسباب ضياع الأندلس.. وتوضِّح كيف نَخر السوسُ في عظام تلك الدولة التي حملت مشعل الحضارة والتقدُّم في أوروبا.. في وقتٍ كانت فيه الممالك الأوربية غارقةً في ظلامٍ دامسٍ.. مستغرقةً في نوم عميق.

وإن العبرة واضحةٌ في هذا الحادث التاريخي الشهير.. فليس الأمر خاصًا بالأندلس، بل هي سُنَّة ماضية تتحقَّق في كلِّ زمانٍ ومكان.

وها هي مأساة فلسطين التي استلبها الأعداء جزءًا بعد جزءٍ.. ماثلة أمام الأبصار، وتظهر فيها الأسباب التي أدَّت إلى سقوط الأندلس من قبل.. من التفريط والتخاذل والثقة بعهود الأعداء والتقاعس عن النصرة.. واشتغال المسلمين بعضهم ببعض.. والتخلُّف في ميدان العلم والصناعة.. والفهم الخاطئ لعقيدة القضاء والقدر، وغيرها من الأسباب التي تؤكدها هذه النصوص التي عرضتها في هذه الرسالة الموجزة.

إن الأدب صورةٌ للحياة.. وها هي صورة الأدب الأندلسيِّ في عصوره الأخيرة التي سبقت الضياع.. تدلُّ على الولع بالزينة..، والعناية بالتوافه..، وغلبة طابع الجدل، وفقد الصدق في الشعور والعفوية في التعبير.

وفي هذا نذيرٌ لأمة الإسلام.. ينبهها إلى خطر التيَّارات العابثة في الأدب والنقد التي أولع بها المفتونون بكل ما يأتي من الغرب.. مهما كان وخيمًا فاسدًا سيئ العاقبة..

فلا بدَّ أن يكون الأدب معبرًا عن الفترة الحاسمة التي تعيشها الأمَّةُ الإسلاميَّةُ في مواجهة قوى الشر والحقد والظلام.

والإيجاز مقصود في هذه الرسالة؛ لأن القصد منها إيقاظُ الوعي وتجلية العبرة..

فلا مجال للاستفاضة والاستطراد وكثرة القول الذي ينسي بعضه بعضًا.

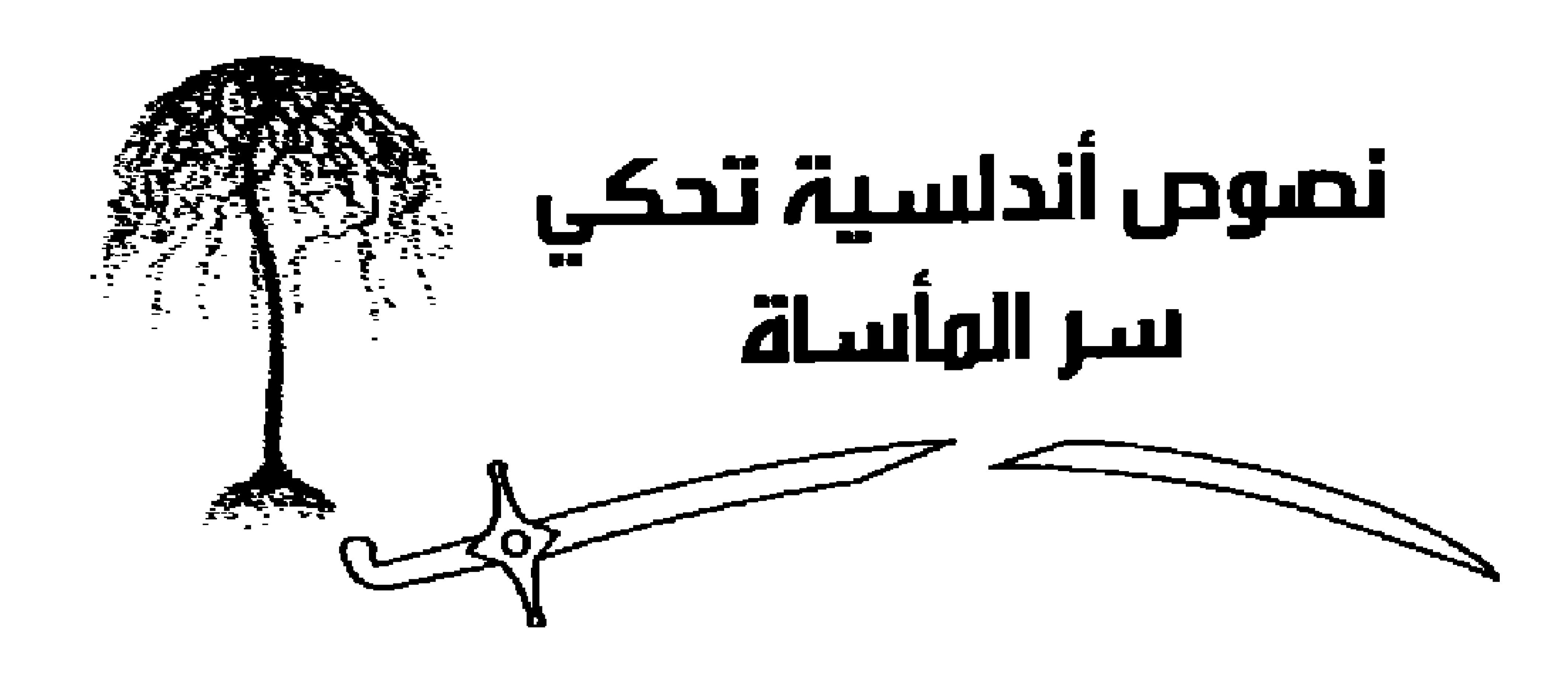
ومن اللَّــه ﷻ نستمد الهداية والتوفيق.. وهو نعم المولى ونعم النصير.

شعبان ١٤١٢هـ / فبراير ١٩٩٢م.

د. مُصْطَفَى عَبْد الوَاحِد
الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

* * *





نصوص أندلسية تحكي سر المأساة

لا تزال نكبة المسلمين في الأندلس موضع استرجاع من المعاصرين كلما أصابتهم فاجعة، أو نزل بساحتهم بأسٌ شديدٌ من أعدائهم يقتطع منهم بعض ما في أيديهم من الأوطان الإسلامية التي فتحها أسلافُهم، وجادوا في سبيل ذلك بأرواحهم؛ مبتغين خيرَ الإنسانية وتحرير الشعوب من العبودية لغير اللَّـه.

ولهذا تذكَّر أحمد شوقي هذه المأساة الفادحةَ حين بلغته أخبارُ سقوط مدينة « أدرنة » التركية الإسلامية في أيدي البلغار النَّصارى سنة (١٩١٢م) وما صنعوه بالمسلمين من الفظائع فقال:

يَا أُخْتَ أَنْدَلُسٍ عَلَيْكِ سَلَامُ
مَضَتِ الخِلَافَةُ عَنْكِ وَالْإِسْلَامُ
جُرْحَانِ تَمْضِي الْأُمَّتَانِ عَلَيهِمَا
هَذَا يَسِيلُ وَذَاكَ لَا يَلْتَامُ!

واليوم نشهد بأعيننا مأساةَ فلسطين العربية الإسلاميَّة، واستلابَ بيت المقدس الذي تسلَّمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حين استطاع المسلمون بقيادة أبي عبيدة

ابن الجراح ﷺ زلزلةَ حصونِ الرُّوم، وإجبارهم على التسليم..

ونرى اليهود الحقَدة وهم يقتلون إخواننا وأبناءنا، وينتهكون أعراضَهم، ويهدمون بيوتهم، ويغلقون مساجدَهم ومدارسهم، ويدنِّسون مصاحفهم.. فلا نملك إلا الاسترجاع والـحَوْقلة، ومع تكرار تلك المناظر وتتابع تلك الأخبار، لم يَعُدْ ذلك يؤثِّر في مشاعر كثيرٍ من العرب والمسلمين، ولا يُقِضُّ لهم مَضْجَعًا ما داموا آمنين في ديارهم مطمئنين في أهلهم وأموالهم.

وما درَوْا أن الخطر ليس ببعيد عنهم، وأن الخطةَ الشيطانيةَ التي دبَّرها اليهود والصليبيون في هذا العصر، لا تَفرق بين قطر إسلاميٍّ وقطر.. فالكلُّ مستهدفٌ، والجميع أعداء لهم.. لكنهم يستعينون ببعضهم على بعض.. كما وقع في مأساة الأندلس سواء بسواء.

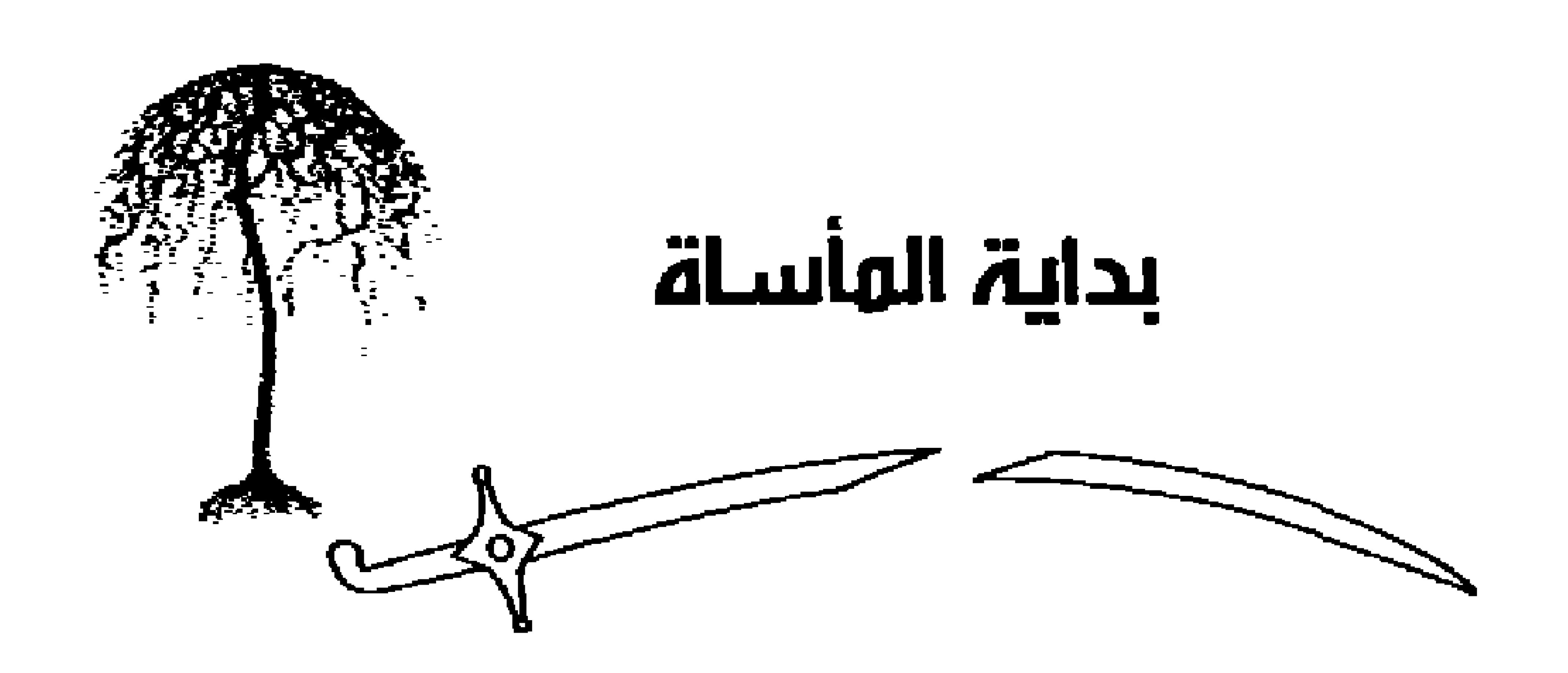
هذه الخواطر المقلقة هي التي جعلتني أرجع إلى كتب التاريخ والأدب؛ لأتلمَّس الأسباب الحقيقية لتلك المأساة، كما تجلَّت في الشعر والنثر، وليس فيها من جديد غير مسطور، لكن الجديد هو التفتيش عن الأسباب التي تكشف ما أصاب المسلمينَ من تغيُّرٍ في بنائهم الاعتقاديِّ والعلميِّ والاجتماعيِّ، إلى جانب الأسباب السياسية والعسكرية التي يُسْأل عنها الحكام والقادة.

ومن المعلوم أن القرون الثلاثة الأولى لوجود المسلمين في الأندلس، كانت قرونَ عزَّةٍ، ومَنَعة، وعنفوان، ونهضة علمية

وتقدُّم فكريٍّ رائع، ومع بداية عصر ملوك الطوائف بدأ التراجع والاختلال، واستغرق انحلال تلك الدولة وذهاب ريحها واستحقاقها للعدم خمسة قرون، حتى سقطت الأندلس في أيدي الصليبيين سنة سبع وتسعين وثمانمائة من الهجرة.. فتنصَّر بالقوَّة والإكراه من تنصَّر، وهرب إلى المغرب من هرب، واغتيل أكثرهم في الطريق فزالت تلك الرسومُ، ومُحيت تلك العلومُ، وأصبحت دولة المسلمين في الأندلس قصةً تُرْوى.. ومثلًا يُضْرب للحَوْر بَعْد الكَوْر، وللذلَّة بعد العزَّة، وللإساءة بعد الإحسان كما قال شوقي:

رُبَّ بَانٍ لِهَادِمٍ وَجَمُوعٍ
لِمُشِتٍّ ومُحْسِنٍ لِمُخِسِّ!

***



وها هو ابن سعيد يوجز لنا بدايةَ المأساة، وسببها الأول فيقول:

« ومنذ وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن إمام الجماعة، وصار في كل جهة مملكة مستقلة، يتوارث أعيانها الرياسة، كما يتوارث ملوكُها المُلْك، ومرَنُوا على ذلك فصَعُب ضبطهم إلى نظام واحد، وتمكَّن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع »[1].

إلى أن يقول: « إلى أن ثار ابن هُود وتلقَّب بالمتوكل، ووجد قلوبًا منحرفةً عن دولة بَرِّ العُدْوة، مهيَّأةً للاستبداد فملَكها بأيسر محاولة، مع الجهل المفرط وضعف الرأي، وكان مع العامة كأنه صاحبُ شعوذةٍ، يمشي في الأسواق، ويضحك في وجوههم، ويبادرهم بالسؤال، وجاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان، فأعجب ذلك سفهاءَ الناس وعامتهم العمياء، وكان كما قيل:

أُمُــورٌ يَضْحَــكُ السُّفَهَــاءُ مِنْهَــا

وَيَبْكِــي مِــنْ عَوَاقِبِهَــا الْـحَلِيــمُ

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢١٤).

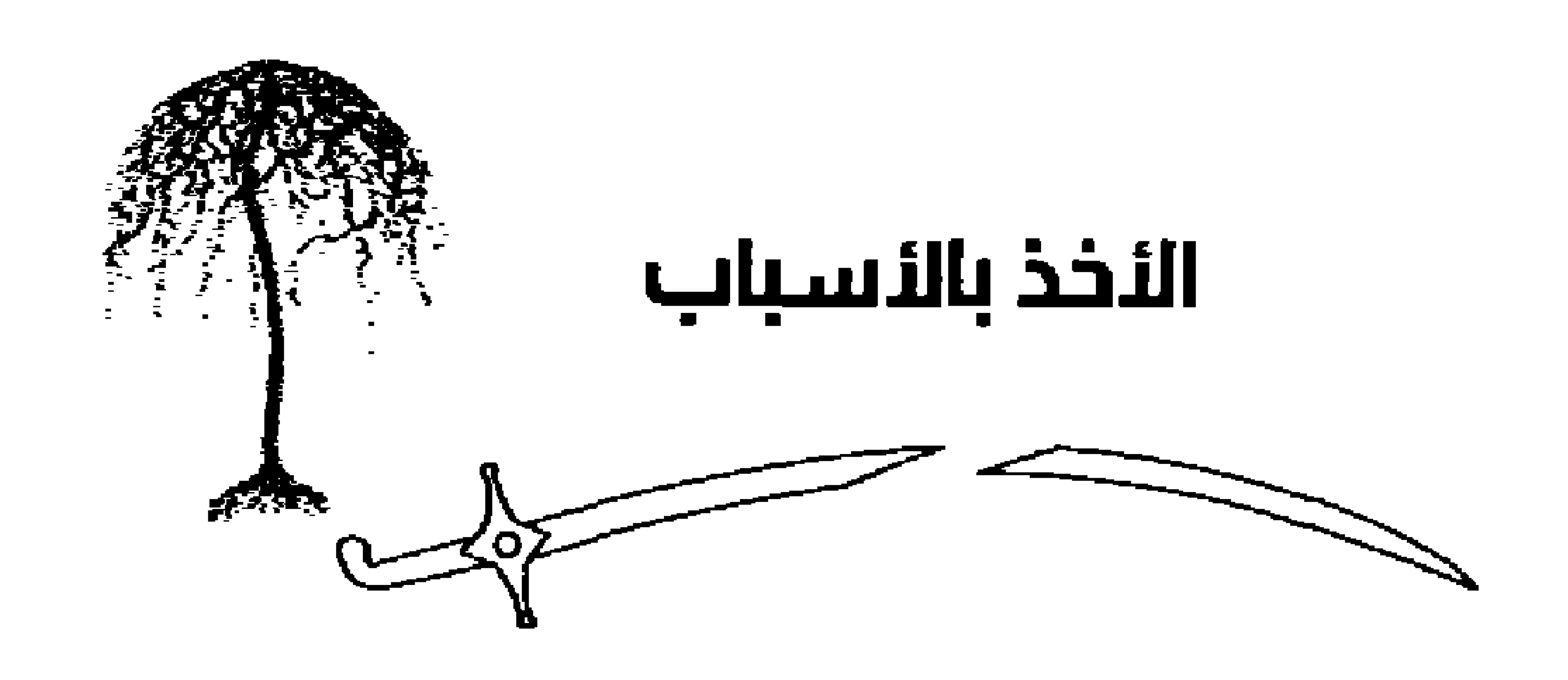
فآل ذلك إلى تلف القواعد العظيمة، وتملك الأمصار الجليلة، وخروجها من يد الإِسلام »[1].

فما هذه القواعد العظيمة التي تَلِفَتْ، وما هذا الجهل المفرط الذي شاع في بلاد الأندلس في تلك الفترة، بعد أن كانت مضيئةً زاهرةً بأنوار العلم، ومصابيح المعرفة والتأمل.. وما هذه الأساليب الغريبة من الشعوذة التي استخدمها ابن هود في تغلُّبه على بلاد الأندلس، وتهيئة الفرصة لوقوعها في براثن الأعداء؟

هنا ينبغي للباحث المحزون من هذا المصاب الأليم في الماضي، ومن المصائب الجاثمة اليوم في بعض أقطار الإِسلام، أن يتمهلَ ويتأمَّلَ ويتفحص الآثارَ الباقيةَ، والأخبارَ المرصودة؛ ليعرف أيَّ قواعد تَلِفت، وأي أسس اهتزَّت، وأي أركان تَضَعْضَعَت.. وهو حينئذ يستطيع أن يتعرف بوضوح إلى الأسباب الحقيقية لهذه المأساة.

***

(١) المرجع السابق.



الأخذ بالأسباب

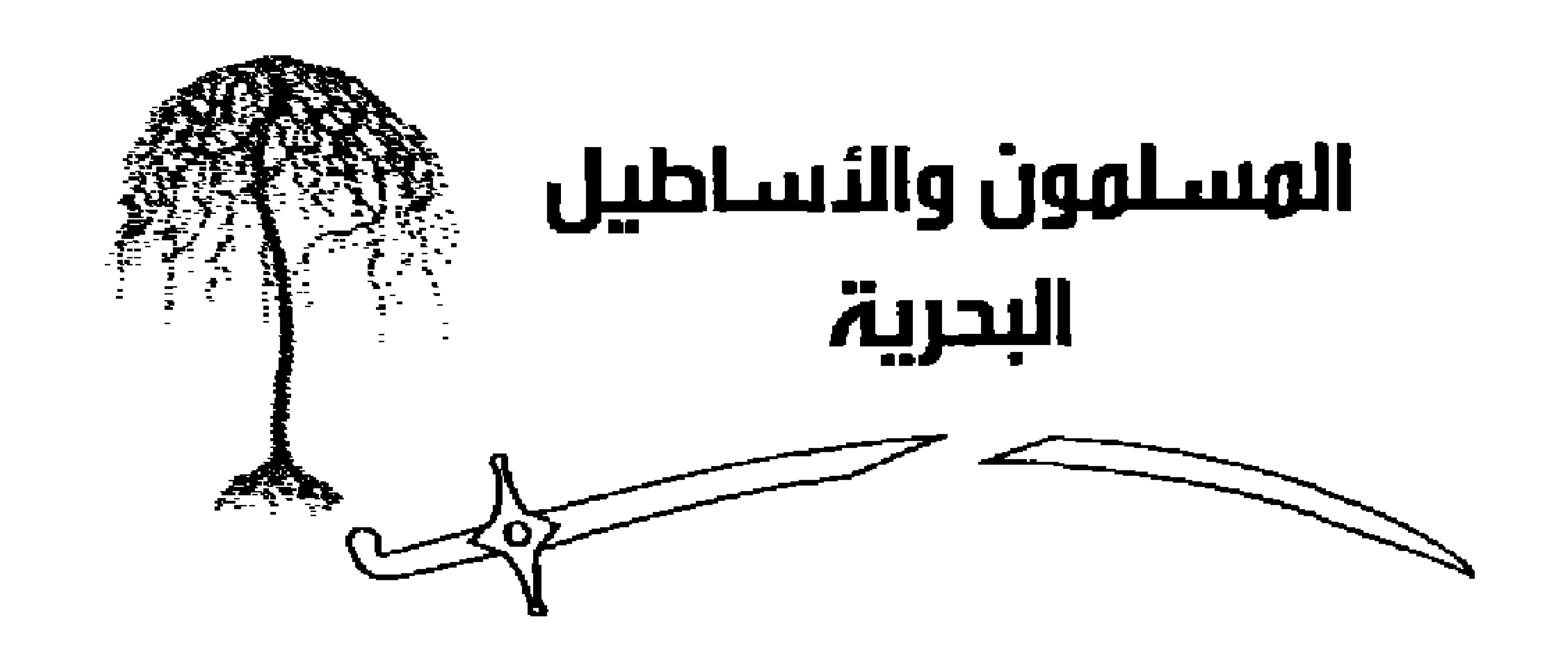
أولى القواعد التي تلفت: قاعدةُ الأخذِ بالأسباب، والاستعداد للعدوّ بما يلزم من القوَّة عملًا بقوله تَعَالَى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦].

هكذا كان المسلمون حين انساحوا في أنحاء الأرض يرفعون رايةَ التوحيد، ويحرِّرون الأمم من المذلَّة والهوان، والعبودية للبشر.. وهكذا كان طارق بن زياد ومن معه من جنود الفتح، وهكذا كان عبد الرحمن الداخل وخلفاؤه.

حتى إذا ما وقعت الفتنة وشاع الجهل، رأينا من يعوِّلون على كتب الحَدَثان، التي تعتمد على قِرَانات الأفلاك وتَحْسب الطوالع، وتستسلم للعدو بناءً على اليأس من النصر، حتى قبل أن تبدأ المعركة!

* * *

المسلمون والأساطيل البحرية



يحدثنا ابنُ خلدون في مقدمته، عما آل إليه أمر المسلمين في علاقتهم بالأساطيل البحرية، وكيف ضعفوا أمام غَلَبَة النصارى على البحر الأبيض، بعد أن كانت الغلبة البحرية فيه للمسلمين فيقول: « ولما هلك أبو يعقوب المنصور، واعتلَّت دولة الموحِّدين، واستولت أمم الجلالقة - النصارى - على الأكثر من بلاد الأندلس، وألجأوا المسلمين إلى سيف البحر، وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الروميِّ، قويت ريحُهم في بسط هذا البحر، واشتدت شوكتهم، وكثرت فيه أساطيلهم، وتراجعت قوَّةُ المسلمين فيه إلى المساواة معهم..، ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل؛ لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدويَّة بالمغرب، وانقطاع العوائد الأندلسية.. وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلاً من أهل البلاد الساحلية »[1].

ثم يقول: « والمسلمون يستهبُّون الريحَ على الكفر وأهله، فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحدثان أنه لا بد للمسلمين من الكَرَّة على النصرانية، وافتتاح ما وراء البحر من

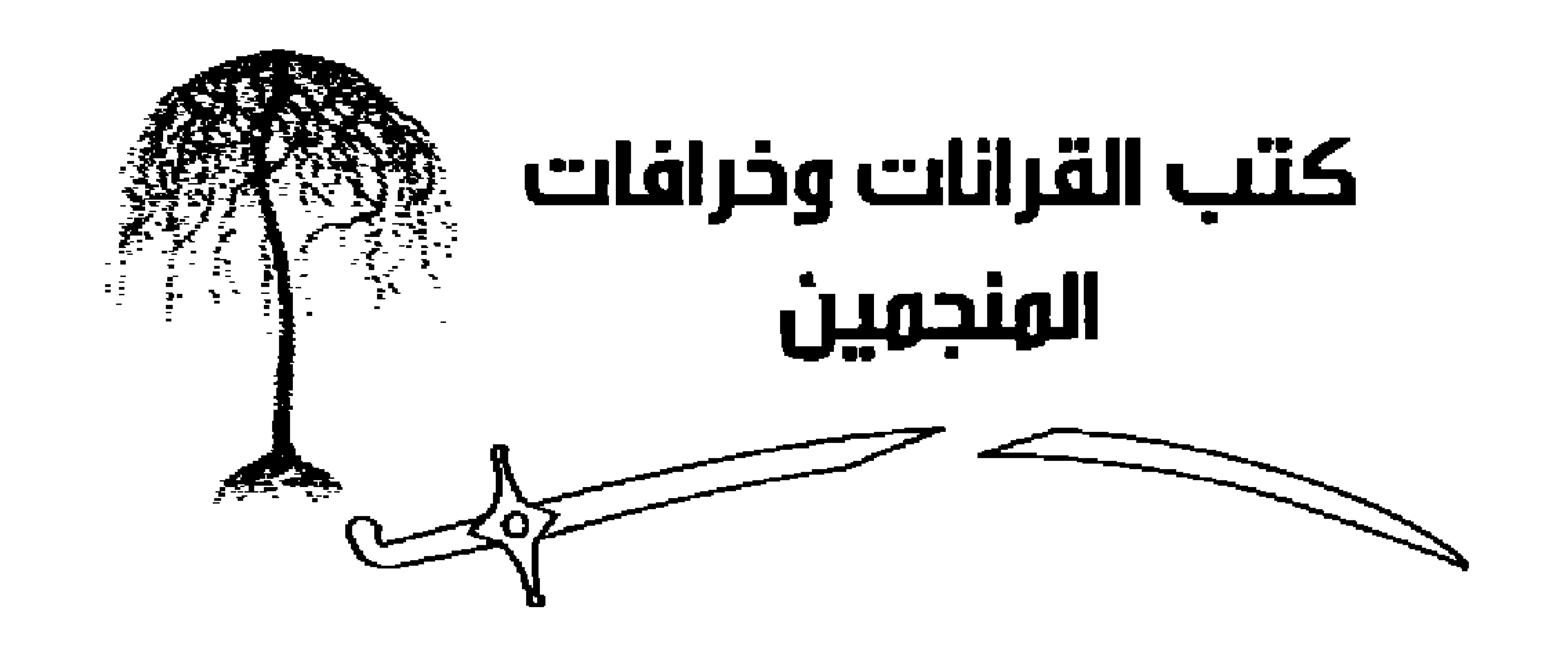
---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٢٥٦) ط (دار القلم بيروت).

بلاد الإِفرنجة، وأن ذلك يكون في الأساطيل واللَّـه ولي المؤمنين، وهو حسبنا ونعم الوكيل ».

* * *

كتب القرانات وخرافات المنجمين



فما هذه الكتب التي تَحْوي الغيوب، وتتحدَّث عن مصائر الشعوب، إن الحدثان لا يقع إلا بالجِدِّ، والعزم، والمصابرة، واتخاذ الأسباب، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

لكنَّ العقلية الأسطورية التي راجت في تلك الأيام قد شلَّت العقول عن التفكير، وغلَّت الأيدي عن التصرف، وتركت العدو ينمِّي قوته ويتغلب على بلاد المسلمين، وهم بمطالعة كتب القرانات وحساب الـجَفْر مشغولون!

ويحدثنا ابن خلدون عن مَلَاحم كانت منتشرةً بالمغرب؛ منها: قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روي الراء، وهي متداولة بين الناس وتحسب العامة أنها من (الحدثان العام)، فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل. والذي سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصةٌ بدولة لِمْتُونة « لأن الرجل - ابن مرانة - كان قُبَيْل دولتهم، وذكر فيها استيلاءهم على سبتة من يد موالي بني حمود، وملكهم لِعُدْوة الأندلس »[١]. فها هم الناس يصدِّقون أن سقوط الممالك والتغلُّب عليها، يجري وفق هذه

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٣٩).

الملاحم التي صاغها المنجمون فيا لمصيبة الإسلام في أبنائه!

ثم يقول ابن خلدون: « ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضًا قصيدة تسمى التبعية أولها:

طَـرِبْتُ وَمَـــا ذَاكَ مِنِّـــي طَـــربْ

وقَـــدْ يَطْــربُ الطَّـــائِرُ الْمُغْتَصَـــبْ

وَمَـــا ذاَكَ مِـنِّـــــي لِلَـهْــــوٍ أَرَاه

وَلَكِـــنْ لِتَذْكَـــارِ بَعْــضِ الشَّـــبَبْ

قريبًا من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال.. ذكر فيها كثيرًا من دولة الموحدين، وأشار فيها إلى الفاطميِّ وغيره، والظاهر أنها مصنوعة. ومن الملاحم بالمغرب أيضًا (مُلَعَّبة) من الشعر الزجليِّ منسوبة إلى بعض اليهود، ذكر فيها أحكام القرانات لعصره، العُلْويين والنَّحْسِيَّيْن وغيرهما وأولها:

فِي صَبْــغِ ذَا الْأَزْرَق لِشرَفِـــهِ خيــار

فَافْهَمُــوا يَـا قَـــومُ هَــذِي الْإِشَـــارَا

نَجْـــمُ زُحَـــل أَخْـبَر بـذِي العَلَامـــا

وبـــدَّل الشَّكْـــلَا وَهِـــيَ سَـلَامَـــــا

شَاشِيَـــةٌ زَرْقـــا بَـــدَلَ الْعِمَـامَـــا

وَشَـــاشَ أَزْرَق بَـــدَلَ الْـغِـــرَارَا

وأبياته نحو الخمسمائة، وهي في القرانات التي دلَّت على

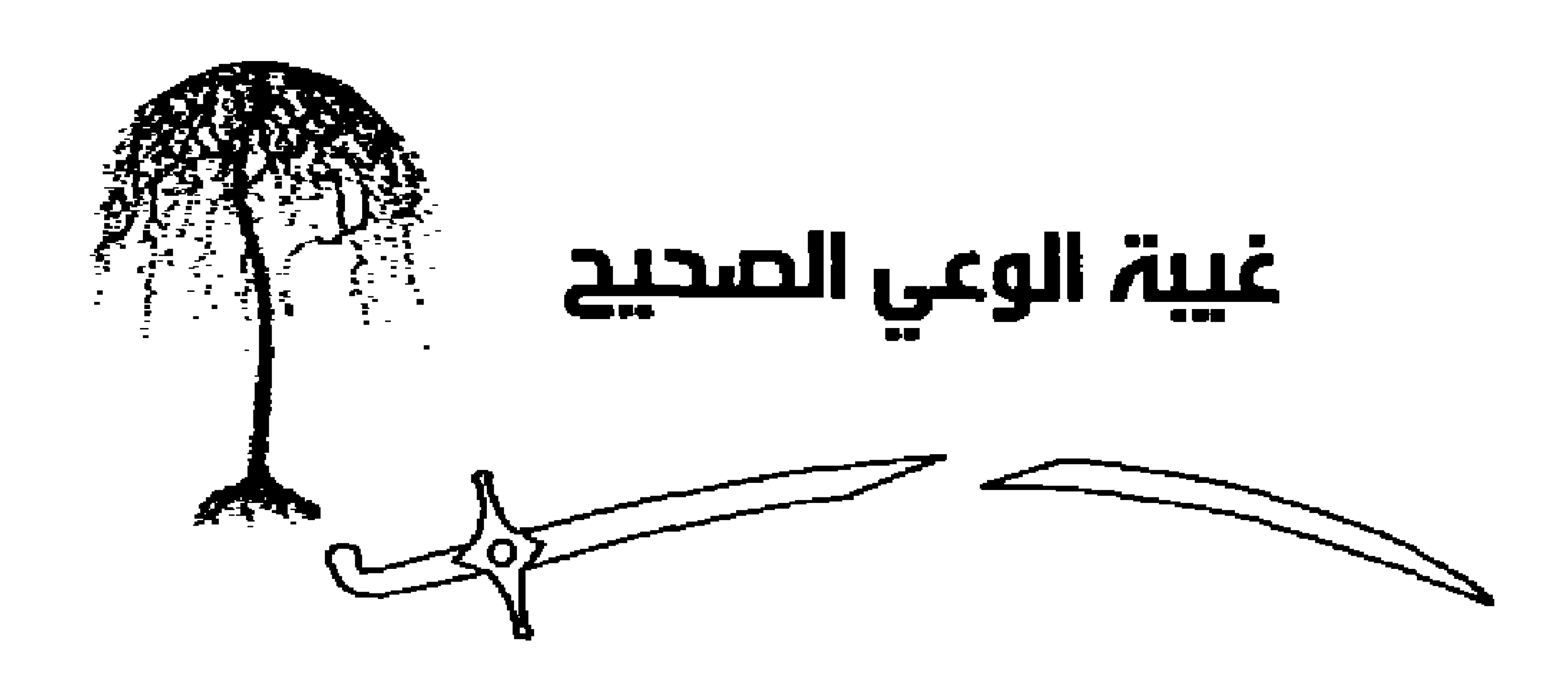
دولة الموحدين »[١].

فانظر إلى يهودي ينبئ أمةً مسلمة بما يكون من حدثانها، وتُصَدِّقُهُ، وتتناقل أقواله السمجةَ الخبيثةَ، وتستدل بها على قيام دولها، ويحفظها العامةُ، بل يسجِّل بعضَها ابنُ خلدون في مقدمته..، بل إنهم كانوا يجعلون للطلاسم أسرارًا ويظنون أن لكلِّ مدينة طلسمًا يضمن بقاء المُلْك فيها. فقد ذكر محمد بن الحداد الوادي آشي روايةً عن الفقيه العدل حسن بن إبراهيم العراف أنه حضر مرة لإنزال الطلسم المعروف بفروج الرواح من العلية بالقصبة القديمة من غرناطة؛ بسبب البناء والإصلاح وأنه عاينه من سبعة معادن مكتوبًا فيه:

إِيـوَانُ غَرْنَاطَـةَ الْغَـرَّاءَ مُعْتَـبَرٌ
طِلَّسْمُـهُ بِـوِلَاةِ الحَـالِ دَوَّارُ
وَفَـارِسٌ رُوحُـهُ رِيـحٌ تُدَبِّـرُهُ
مِـنَ الجَمَـادِ وَلَكِـنْ فِيـهِ أَسْـرَارُ
فَسَـوفَ يَبْـقَى قَلِيـلًا ثُـمَّ تَطْرُقُـهُ
دَهْيَاءُ يَخْرُبُ مِنْهَـا المُلْكُ وَالـدَّارُ[٢]

* * *

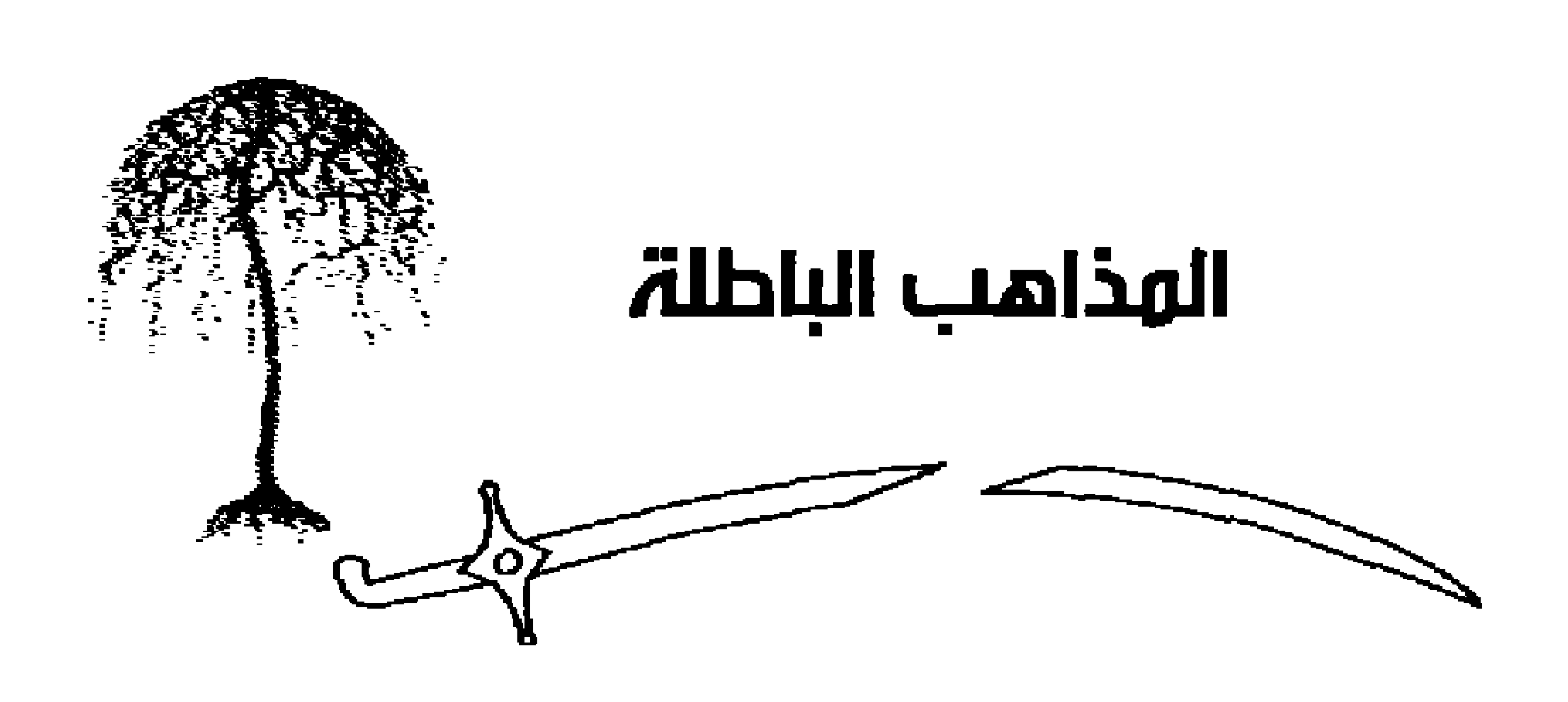
(١) مقدمة ابن خلدون.
(٢) نفح الطيب (٤/ ٥٠٧).



* وعلى فرض أن هذا الشعر مصنوع، فإن المهم في الخبر هو مبدأ الاعتقاد بالطلاسم التي تدبرها الريح، والتي تحوي الأسرار.. فكلُّ هذا دليل على غيبة الوعي الإسلامي الصحيح، وتلف حاسة النظر والتأمل والنكوص عن المنهج الإسلاميِّ النقي المتمثل في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

فثبات الممالك وبقاء الدول لا يكون بطلاسم ولا قرانات يُجْريها المنجِّمون، بل يكون باتباعها للمنهج القويم واستقامتها على الصراط، وقيامها بالواجبات ورعايتها للأمانات.

* * *



ومع شيوع هذا الجهل المناقض لصحَّة الإيمان تهيَّأ المجال للإشارات الباطنية، والنحل الباطلة، والمذاهب الشاذة، لسرعة التصديق والاستعداد للتقليد.. من هنا لم يكن عجيبًا ظهور محيي الدين بن عربي بالأندلس، وقد ولد بمرسية سنة ستين وخمسمائة، ثم رحل إلى المشرق، فنشر الأوهام، وأذاع بين الناس غوامض الكلام، وتركهم يختلفون في أمره ما بين معتقد أنه قطب الوقت، ومعتقد أنه زنديق ضال!

والعجيب أن المقرِّي في نفح الطيب يدافع عن ابن عربي، وينبِّه إلى أن كلامه يمكن تأويله على وجهٍ حَسَن، ويقول: « من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ - رحمه اللَّـه تَعَالَى - مؤول، وأنه لا يقصد ظاهره، وإنما له محامل تليق به، فأحسن الظن به ولا تَنْتقد بل اعتقد، وللناس في هذا المعنى كلام كثير والتسليم أسلم، واللَّـه - سبحانه - بكلام أوليائه أعلم »[1].

مع أن المقري ينقل عن صاحب كتاب (عنوان الدراية) أن أهل الديار المصرية نقدوا ابن عربي، وسعوا في إراقة دمه،

---

(١) نفح الطيب (٢/ ١٦٨).

فخلَّصه اللّـه تَعَالَى على يد الشيخ أبي الحسن البجاني، فإنه سعى في خَلاصه وتأوَّل كلامه، ولما وصل إليه بعد خلاصه قال له الشيخ: كيف يُحْبس مَنْ حَلَّ منه اللاهوت في الناسوت؟! فقال له ابن عربي: يا سيدي تلك شطحات في محل سُكْر، ولا عَتْب على سكران[1]! فكيف استطاع هذا السكران أن يثير الاضطراب الفكريَّ، وأن ينشر طلاسمه وألغازه في المشرق والمغرب، ثم يَشْغل الناس بالدفاع عنه، وتمحُّل تأويل أقواله، أو بالهجوم عليه، وبيان ما فيه من مخالفة لظواهر الشرع وحقائق الاعتقاد.

وقد استخدم ابنُ عربي أسلوب الموشحات الأندلسية في تصوير آرائه كقوله:

فَنَيتُ باللّـه، عَمّـا تَـرَاهُ الْعَيْنُ مِـنْ كَونِـهِ

فِي مَوقِفِ الْـجَـاهِ وصِحْتُ أيْنَ الْأَيْن فِي بَيْنِهِ

فَقَـالَ: يَا سَاهِي عَاينت قَـط عَـين بِعَيِنِـهِ

كَمْ مَرَّةٍ قَالَا: أَنَا الَّـذي أَهْـوَى مَنْ هُـوَ أَنَا

فَـلَا أَرَى حَالًا وَلَا أَرَى شَكْـوى إِلَّا الْفَنَـا

لَسْتُ كَمَنْ مَالَ عَنِ الَّذِي يَهْوِي بَعْدَ الجَنى[2]

إن أفكار الحلول والفَناء قد راجت في تلك الفترة فأفسدت العقائد، وهيَّأت المجال للغيبة عن الواقع، والتعلُّق بالأوهام

---

(١) نفح الطيب (٢/ ١٨٠).

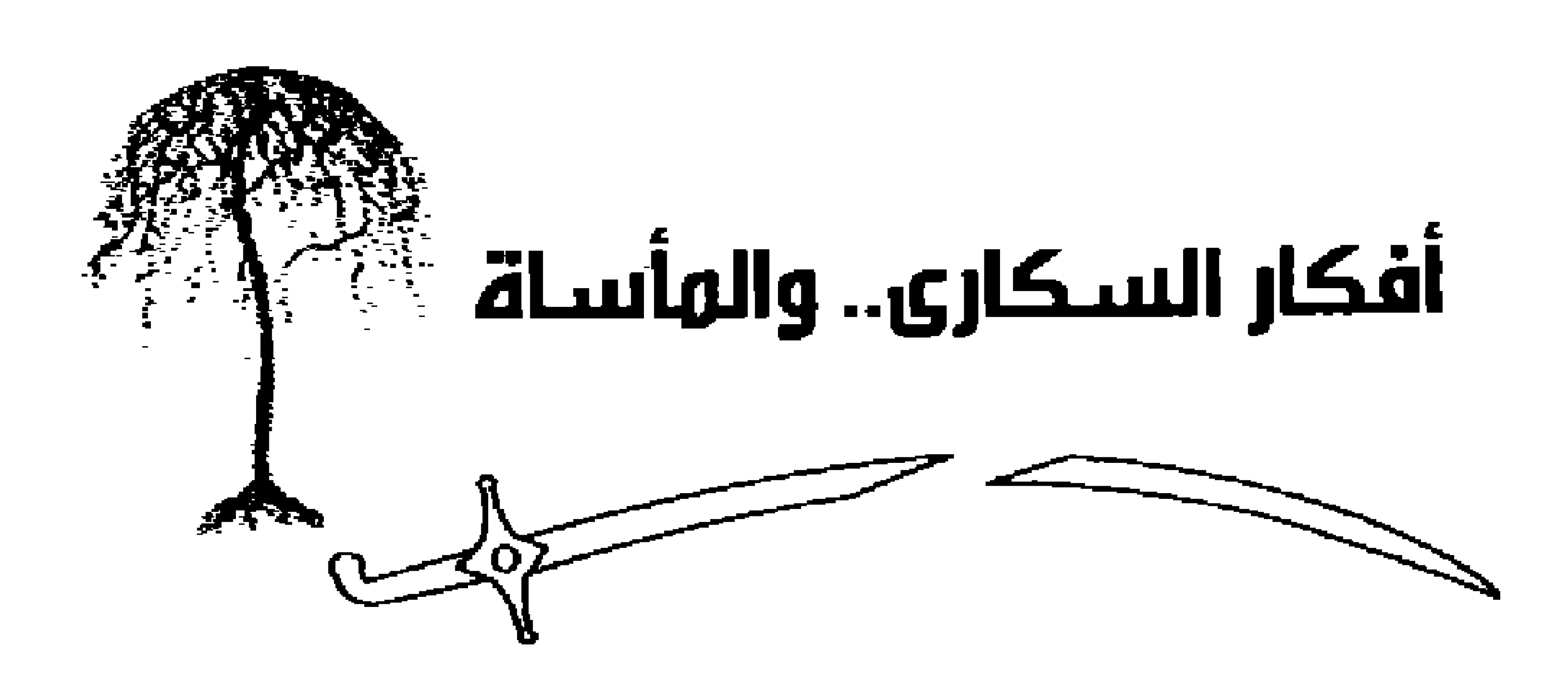
(٢) المرجع السابق (٢/ ١٨١، ١٨٢).

والخيالات.. حتى كان بعض الناس يظنون أن محيي الدين بن عربي يلتقي بالخضر ويعدونه « أحد شيوخه وله معه اجتماع كبير » كما قال عبد اللّـه بن سعد اليافعي[1]!

بل إن اليافعيَّ يتكلف الدفاع عن هذيان ابن عربي وأمثاله، ويذكر أن له محامل منها: « أن يكون ذلك صدر منهم في حال السكر والغيبة، والسكران سكرًا مباحًا غير مؤاخذ ولا مكلَّف! »[2].

***

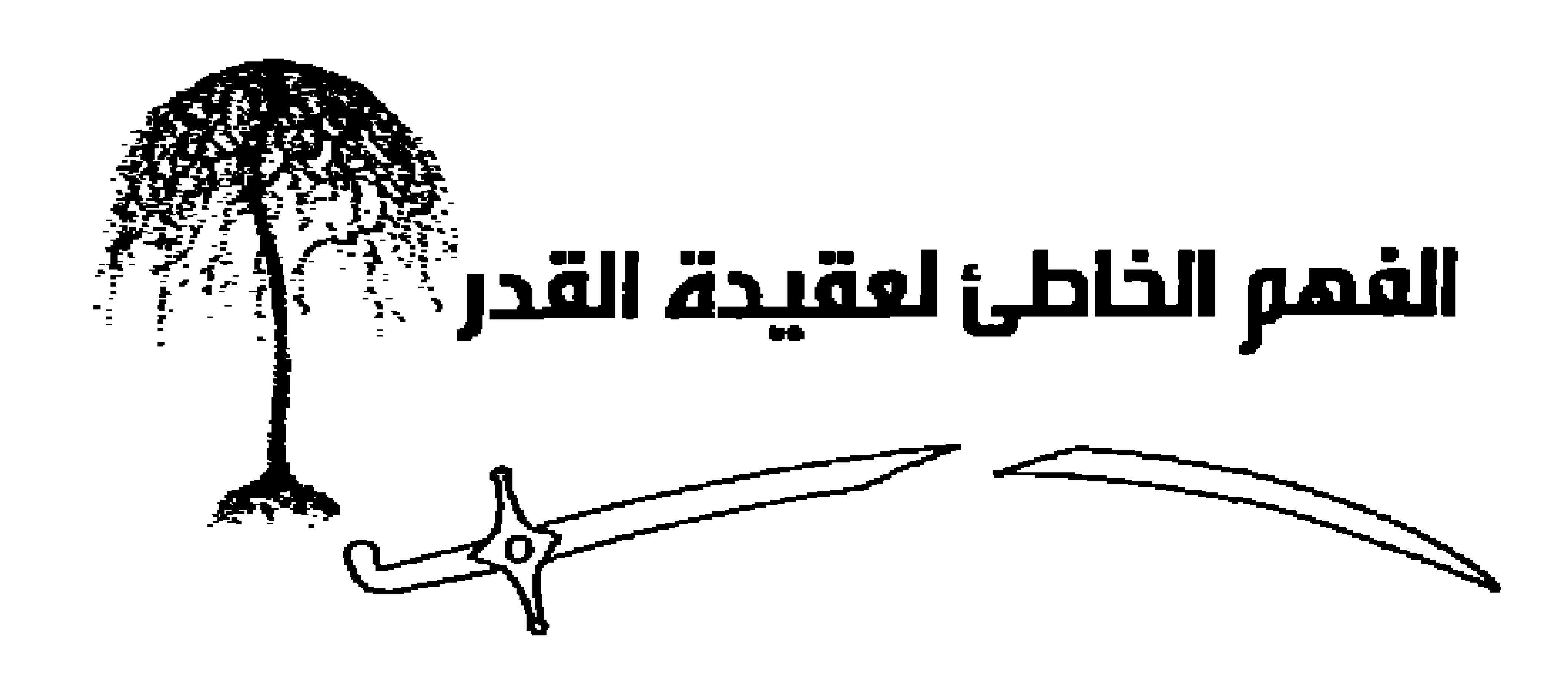
(١،٢) المرجع السابق (٢/ ١٨٣).



وإني لأعتبر شيوع أفكار هؤلاء (السكارى) سببًا مهمًّا من أسباب تلك المأساة الفادحة وما تلاها من مآسٍ ونكبات..

لقد كثر الأولياءُ بالأندلس في قرون النَّكبة، وخرج بعضهم إلى المشرق ينشرون أفكارهم، ويَصْطفون لهم تلاميذ ومريدين.. فبعد أن خرج ابن عربي من الأندلس إلى الشام ومكة ومصر في أواخر القرن السادس الهجري، خرج بعده أبو العباس المرسيُّ الذي هاجر إلى الإِسكندرية بعد أن اشتهر أمره في بلده (مرسية)، وهي بلد ابن عربي أيضًا.. وقد تُوفِّي أبو العباس المرسي في الإِسكندرية سنة ست وثمانين وستمائة للهجرة، وله مسجد وضريح بها يزار حتى اليوم!

* * *



* وهناك سبب خطير من أسباب هذه المأساة تدلُّ عليه شواهد كثيرة من الشعر والنثر لم يتغير اتجاهها منذ بداية أحداث المأساة إلى منتهاها، بل إلى ما تلاها في طور التفجُّع والرثاء.

فحين سقطت أولى مدن الأندلس وهي (طليطلة) انبعثت أصوات الاستسلام والدعوة إلى الفرار؛ كقول عبد اللَّـه بن فرج اليَحْصُبي المشهور بابن العسَّال:

يَـا أَهْـلَ أَنْدَلُـسٍ حُثُّـوا مَطِيَّكُـم
فَمَـا الْمُقَـامُ بِهَـا إِلَّا مِـنَ الْغَلَـطِ

الثَّـوبُ يُنْسَـلُ مِـنْ أطْرَافِـهِ وَأَرَى
ثَـوبَ الْجَزِيـرَةِ مَنْسُـولًا مِـنَ الْوَسَـطِ

وَنَـحْـنُ بَـيـنَ عَـدُوٍّ لَا يُفَـارِقُنَـا
كَيـفَ الْحَيَـاةُ مَـعَ الْحَيَّـاتِ فِي سقَـطِ

ولهذه الأبيات عدَّة روايات[1]. وقال آخر:

يَـا أَهْـلَ أَنْدَلُـسٍ رُدُّوا الْمُعَـارَ فَمَـا
فِـي الْعُـرْفِ عاريـةٌ إلا مـردَّاتُ!

---

(١) نفح الطيب (٤/ ٣٥٢).

فقد نصح ابن العسَّال قومه بالرحيل عن الأندلس بعد أول هزيمة مُنُوا بها، ورأى أن مقامهم فيها من الغلط؛ لأن حتمية الهزيمة مؤكدةٌ في نظره، فمتى بدأ انسلال الثوب من أطرافه فهو متمزقٌ لا محالة، ولكن بعد حين، فما بالنا إذا كان منسلًّا من وسطه..، وذلك بضياع طليطلة ومجاورة الكفار الذين استولوا عليها للمسلمين في المدن الأخرى، فكيف تمكن الحياة مع الحيَّات في سلَّة واحدة؟!

أما الشاعر المجهول الذي دعا قومه إلى رد الْمُعَار، فيجوز أن يكون عدوًّا من أعدائهم أراد أن يخذِّلهم، ويذكِّرهم بأنَّهم اغتَصَبوا هذه الجزيرة من النصارى، فلا بدَّ من أن يعيدوها إليهم..، ويجوز أن يكون مسلمًا مهزومًا يرى أن النعم عواري لا بد أن تُسْتَرَدَّ..، وأنَّ القدَر قد آذَن بسلب تلك النعمة فلا بد من الاستجابة!

لقد حاصر النَّصارى طُلَيْطِلَةَ مدَّةً طويلة قدَّرها بعض المؤرخين بسبع سنوات، وهي مدينة حصينة قيل: إنها من بناء العمالقة، ولو وجدت من بقية الممالك الإسلامية بالأندلس مساعدة لما سقطت في أيدي النَّصارى، ولما انسلَّ ثوب الجزيرة من الوسط، لكن المسلمين في تلك الفترة كانوا يتراخون ويهملون ويتنازعون، فإذا أصابتهم الهزائم المفجعة تعلَّلوا بالقدر وبما جرى به القلم وما سجِّل في الكتاب.

ويتضح ذلك في كتابات المؤرخين، كما يتضح في الشعر والنثر الأدبي على السواء. ينقل المقري عن صاحب كتاب

(مناهج الفكر) أنه قال بعد وصفه لجزيرة الأندلس وأقطارها ما صورته: « ولم تزل هذه الجزيرة منتظمةً لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، إلى أن طمَا بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كلّ رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، وجعله معقلًا يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه، فصار كل منهم يشنُّ الغارة على جاره، ويحاربه في عقْرِ داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو، في الدين يعادي، ويراوح معاقلهم بالعَيْثِ ويُغَادِي، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة، كان ذلك في الكتاب مسطورًا، وقدرًا في سابق علم اللَّـه مقدورًا ».

ويعلق المقري على هذا النص بقوله: « وهذا قاله قبل أن يستولي العدو على جميعها، واللَّـه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين »[1].

فصاحب مناهج الفكر يقرِّر أنَّ سَيْل العناد والنفاق قد طمَّ، وأن التنازع والشقاق بين المسلمين قد عَمَّ، وأنهم رضوا بالاستكانة لعدوهم؛ حرصًا على ألقابهم ومنافعهم، وصالحوه على إتاوة يدفعونها إليه، بعد أن كانوا هم الذين يأخذون الجزية من الذميين الذين في ملكهم.. لكنه يمسح ذلك كله بقوله: « كان ذلك في الكتاب مسطورًا ».

فكأن هؤلاء لم يَصْنعوا شيئًا إلا إنفاذ ما سطر في الكتاب وسبق

(١) نفح الطيب (٤/ ٤٤٦).

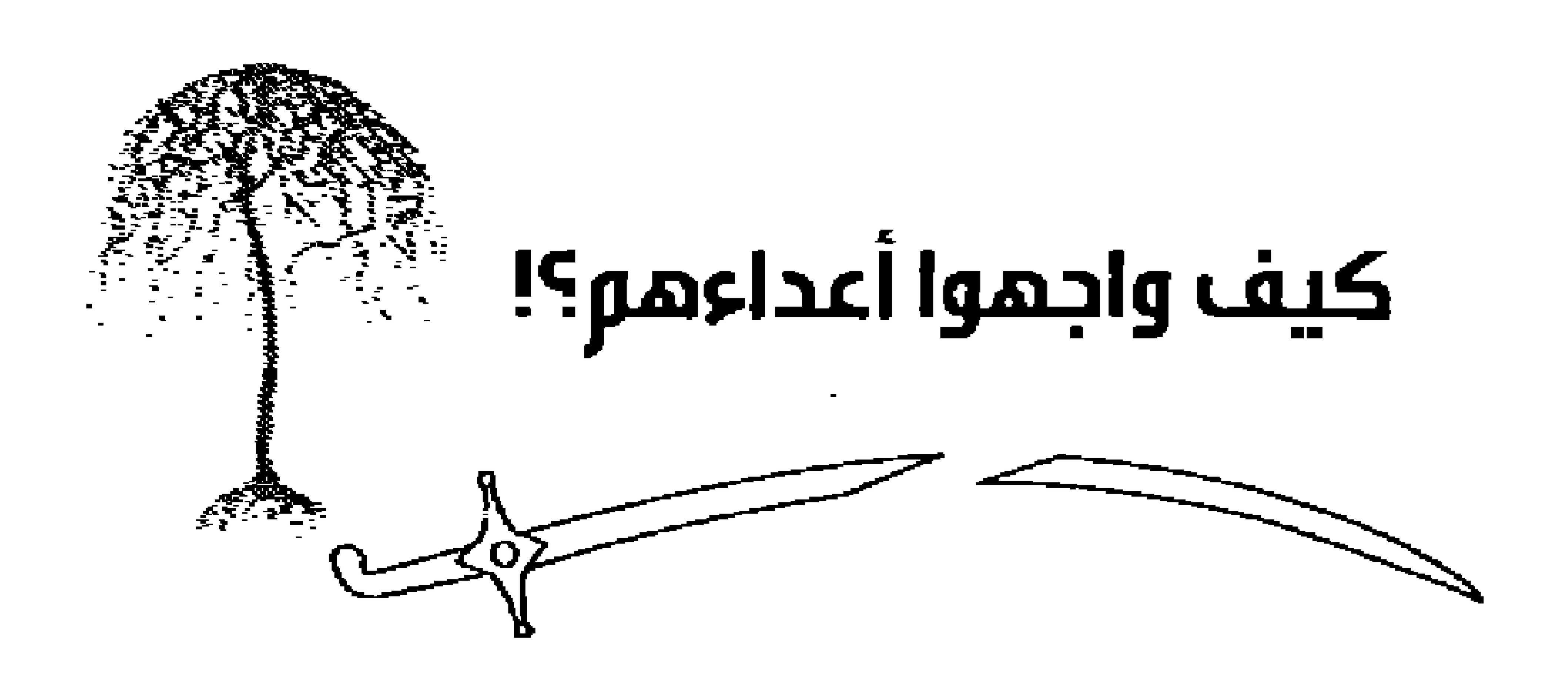
به القلم.. وهذا من الفهم المغلوط لعقيدة القضاء والقدر..

إن الحق - سبحانه - بيَّن للمسلمين الذين أصابهم القَرْحُ في أحد أسباب ما أصابهم من بلاء: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ﴾[آل عمران: ١٥٢] ولم يقل لهم: إن ذلك بسبب ما سطِّر في الكتاب وجرى به القلم.

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[الشورى: ٣].

فهذه الظاهرة القَدَرية المغلوطة في أشعار الشعراء، ورسائل الكتاب وكتابات المؤرخين في تلك الفترة تدلُّ على خللٍ أصاب العقول والقلوب، مهَّد للتواكل والاستنامة، وانتظار ما يجري به القضاء.

* * *



ولننظر إلى الطريقة التي واجه بها المسلمون في بَلَنْسِية جموع النصارى الذين قدموا لاستلاب هذه المدينة من أيدي المسلمين سنة (٤٥٦هـ).

فقد كان أهلُها « جاهلين بالحرب، مغترين بأمر الطعن والضرب، مقبلين على اللذات من الأكل والشرب »[١].

وقد خدعهم النَّصارى وأظهروا لهم الضعف عن منازلتهم، فانخدعوا بذلك، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم، وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر، فاستدرجهم العدو، ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر، وما نجا منهم إلَّا مَنْ حصَّنه أجَلُه - كما يقول المقرِّي - وفي أهل بلنسية يقول بعض الشعراء حين خرجوا في ثياب الزينة والترُّفه:

لَبِسُوا الحَدِيدَ إِلَى الْوَغَى وَلَبِسْتُمْ
حُلَلَ الحَرِيرِ عَلَيكُمْ أَلْوَانَا

مَا كَانَ أَقْبَحَهُمْ وَأَحْسَنَكُمْ بِهَا
لَو لَمْ يَكُنْ بِبَطِرْنَةٍ مَا كَانَ[٢].

---

(١) نفح الطيب (٤/ ٤٤٨).

(٢) المرجع السابق.

يشير إلى وقعة (بَطِرْنة) التي سبقت استيلاء النَّصارى على بلنسية، فهل هذه أحوال قوم يواجهون عدوًّا شرسًا حاقدًا، يقبلون على الأكل والشرب ويجهلون الطُّعَان والحرب؟! ثم يتعللون بالمقادير، وينتحلون لأنفسهم المعاذير.

نعم؛ إن بعض المؤرخين قد سجَّلوا على أهل الأندلس في تلك الفترة التي بدأت فيها الكارثة، عوجهم وفساد أحوالهم، وخذلان بقية المسلمين لهم، حتى من أهل الممالك الأندلسية المتناحرة.

فهذا ابنُ حيَّان يذم أهل ذلك الزمان من أهل الأندلس، ويصفهم بأنهم « يعللون أنفسهم بالباطل، وأن من أدلِّ الدلائل على جهلهم: اغترارهم بزمانهم وبعدهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيِّهم، وغفلتهم عن سد ثغورهم، حتى أطل عدوهم الساعي؛ لإطفاء نورهم يجوس خلال ديارهم، ويستقرئ بسائط بقاعهم، ويقطع كل يوم طرفًا ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صُمُوت عن ذكرهم، لُـهَاةٌ عن بَثِّهم[١].

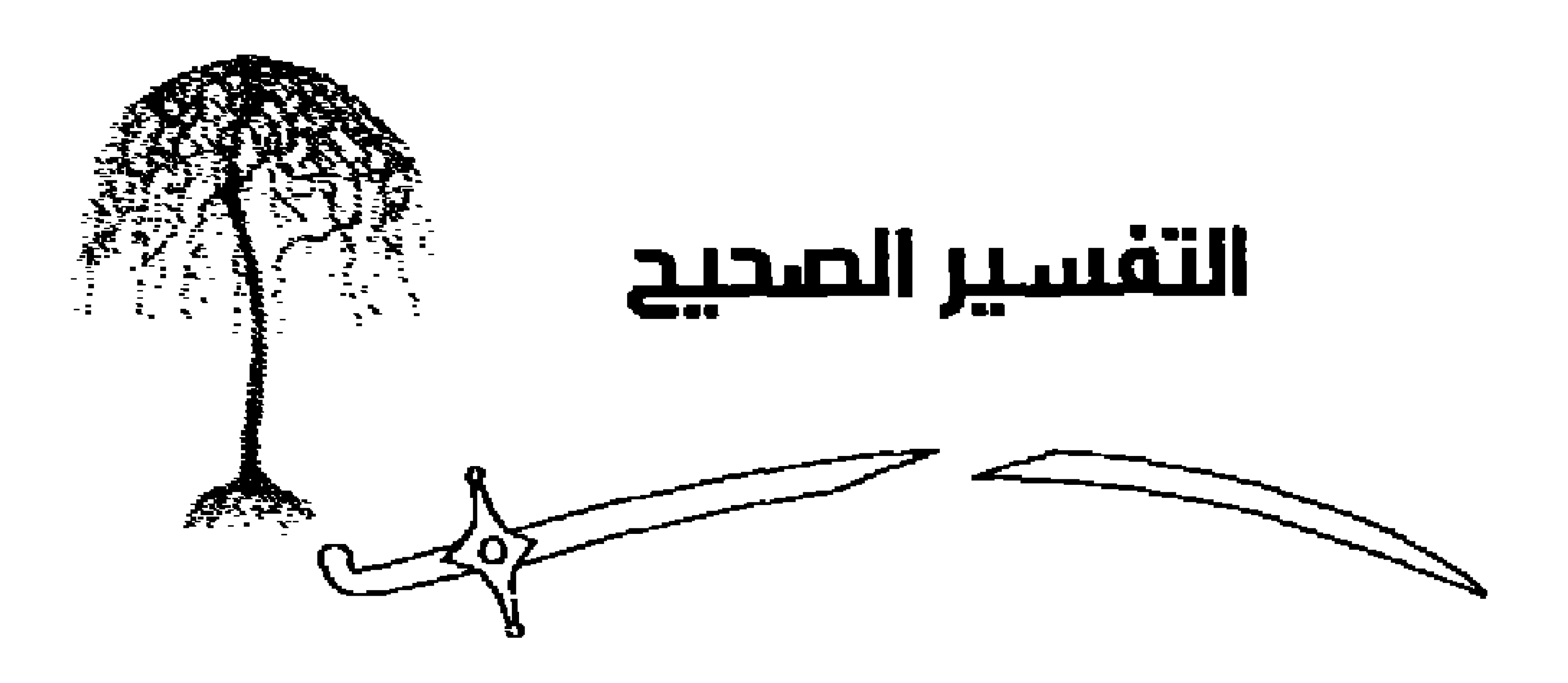
ما إنْ سُمع عندنا بمسجد من مساجدنا، أو محفل من محافلنا مذكِّر لـهم أو داعٍ، فضلًا عن نافر إليهم أو ماشٍ لهم، حتى كأنهـم ليسوا منـا، أو كأن بَثْقَهم[٢] ليـس بمُفْضٍ إلينا، وقـد بخلنـا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغَنَاء، عجائب فاتت التقدير وعرَّضت للتغيير، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير »[٣].

---

(١) البث: الحزن.

(٢) البثق: الخرق أو المكان المكسور في السد، ينفذ منه الماء.

(٣) نفح الطيب (٤/ ٤٥٢).



التفسير الصحيح

* هذا هو التفسير الصحيح لأسباب المأساة، غفلة عن سدّ الثغور، وتعلل بالباطل وجهل بالواقع وعجز عن مواجهته.

* ومن الشواهد الدَّالة على هذا النكوص عن الجهاد وتبعاته والإخلاد إلى الأرض وحب الحياة، ما ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه (أحكام القرآن) عند تفسير قوله سبحانه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]؛ إذ قال: « ولقد نزل بنا العدو - قصمه اللَّـه تَعَالَىٰ - سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فجاس ديارنا وأسَر جيرتنا، وتوسط بلادنا في عدد حدَّد الناس عدده فكان كثيرًا، وإن لم يبلغ ما حددوه، فقلت للوالي والمولَّى عليه: هذا عدو اللَّـه قد حصل في الشَّرَك والشبكة، فلتكن عندكم بركةٌ، ولتكن منكم إلى نُصْرة الدِّين المتعينة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط به، فإنه هالك لا محالة إن يسَّركم اللَّـه له، فغلَبت الذنوب، ورجفت بالمعاصي القلوبُ، وصار كل أحد من الناس ثعلبًا يأوي إلى وِجَاره، وإنْ رأى المكيدة بجاره، فإنا للَّـه وإنا إليه راجعون »[1].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٩٤٣) (تحقيق البجاوي).

كان ذلك في البداية، قبل أن يأخذ العدو شَرقي الأندلس وسَرْقُسْطة ومَيُورقة وغيرها، ولكنَّ البدايات عنوانٌ على النهايات كما يقول المقري.

لقد أصاب الـخَدَر العزائم، ولم يعد لاستنهاض الشعراء للرعاة والرعية لاستنقاذ ما سقط من الأقطار الأندلسية في أيدي أعداء الدين نتيجة ولا أثر يُذْكر، كما قال المقري: « ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى - دمرهم اللَّـه تَعَالَى - على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسُّوقة؛ لأخذ الثار، بالنظم والنثار، فلم ينفعهم ذلك حتى اتسع الخَرْق، وأعضل الداءُ أهلَ الغرب والشرق »[1].

فإذا كانت أسباب المأساة بما جنى أصحابها واضحة، وإذا كانت علامات التقصير والمخالفة لائحة.. فلماذا التعلل بالأقدار والدعوة للرضا بما يقع من الخطوب؟.. فهذه قصيدة الشاعر المجهول في رثاء طليطلة، وهي أول مدينة سقطت في أيدي الأعداء الحاقدين، تَنْزِع إلى هذه اللهجة المستكينة، وهذا الفهم الخاطئ لعقيدة القدر؛ إذ يقول:

أَلَـمْ تَـكُ مَعْقِـلًا لِلـدِّين صَعْبًـا
فَـذَلَّلَـهُ كَـمَـا شَـاءَ الْقَـدِيـرُ

وَأَخْـرَجَ أَهْـلَهَـا مِنْـهَـا جَـمِيعًـا
فَصَـارُوا حَـيثُ شَـاءَ بِهِـمْ مَصِيرُ

---

(١) نفح الطيب (٤/ ٤٧٩).

نُـــذُورٌ كَــانَ لِلْأَيَّــامِ فِـيهِــمْ
بِمَهْلِكِهِــمْ فَقَــدْ وَفَــتِ النُّــذُورُ[١]

مع أن هذه القصيدة تحوي استنهاضًا للعزائم، ودعوة إلى الجهاد، وحسرة على ما آل إليه أمر المسلمين في تلك البقاع، كقوله في التحريض على الثأر من المعتدين:

خُــذُوا ثَــأْرَ الدِّيَانَـــةِ وَانْصُرُوهَــا
فَقَــدْ حَامَـتْ عَلَـى الْقَتْلَـى النُّسُـورُ
وَلَا تَهِنُــوا وَسُلُّــوا كُــلَّ عَضْــبٍ
تَـهَــابُ مَضَارِبًــا مِنْــهُ النُّحُــورُ
وَمُوتُــوا كُلُّكُــمْ فَالـمَـوْتُ أَوْلَــى
بِكُــمْ مِــنْ أَنْ تُجَــارُوا أو تَجُــوروا
أَصَــبْرًا بَـعْــدَ سَبْــيٍ وَامْتِحَــانٍ
يُــلَامُ عَلَيهِمَــا الْقَلْــبُ الصَّبُــورُ؟

وقوله في التفجُّع على ما آل إليه أمر الذين رضوا بالحياة في ظلال الدَّعَة الكاذبة تحت حكم الكفار:

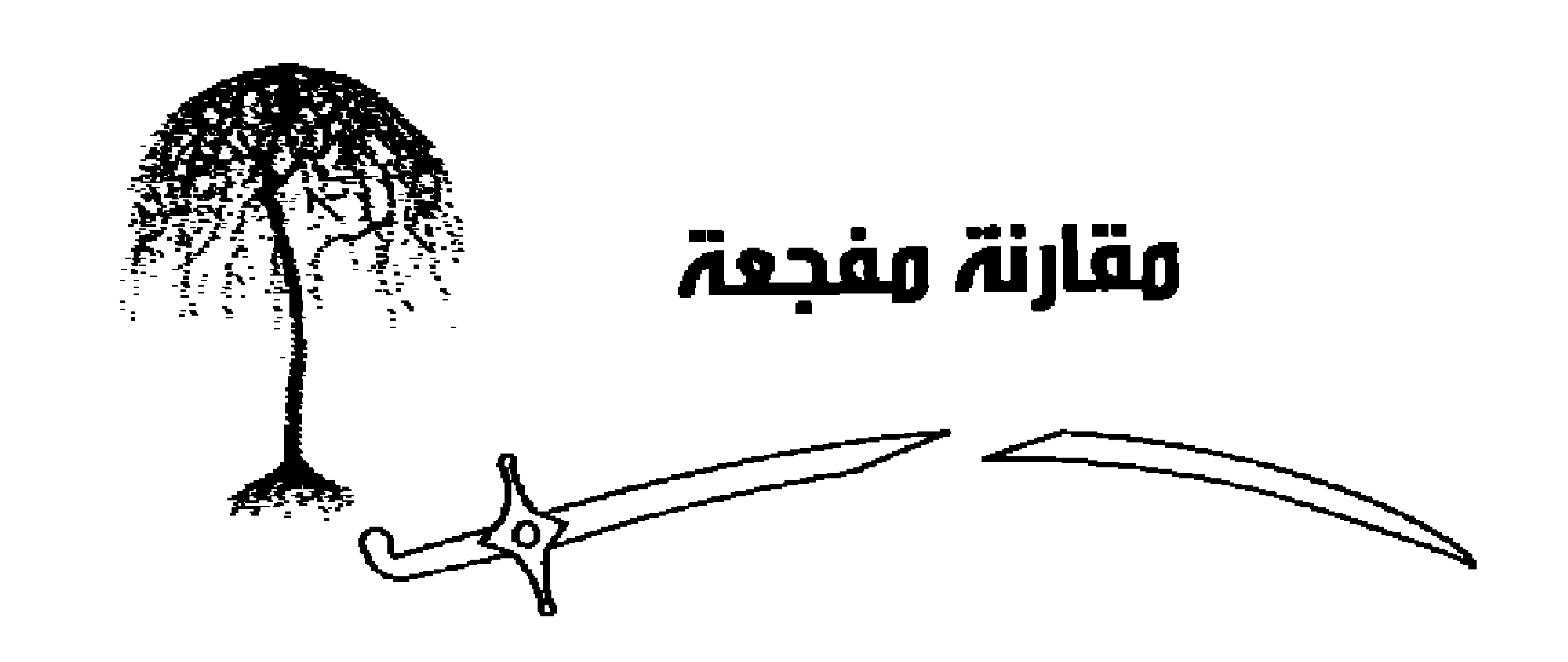
لَقَــدْ ذَهَــبَ الْيَقِــينُ فَـلَا يَقِـينٌ
وغَــرَّ الْقَــومَ بِاللَّـــهِ الْـغَــرُورُ
فَــلَا دِيــنٌ وَلَا دُنْيَــا وَلَــكِــنْ
غُــرُورٌ بِـالْـمَعِيشَـــةِ مَــا غُــرُورُ

---

(١) نفح الطيب (٤/ ٤٨٣).

رَضُــوا بالــرِّقِّ يَـا لَلَّــه مَــاذَا
رَآهُ وَمَـا أَشَــارَ بِــهِ مُـشِــيـرُ
مَضَـى الْإِسْـلَامُ فَابْـكِ دَمًـا عَلَيْـهِ
فَمَـا يَنْفِـي الجَـوى الدَّمْـعُ الْغَزِيـرُ!
وَلَا تَجْنَـحْ إلـى سَـلْـمٍ وَحَـارِبْ
عَسَـى أَنْ يُجْـبَـر العَظْـمُ الْكَسِـيرُ

* * *



مقارنة مفجعة

ويقارن هذا الشاعر المجهول الذي يذوب شعره أسًى وتفجعًا، بين غفلة المسلمين في مواجهة عدوهم الماكر المخادع، ورباطة جأش الأعداء ولو كانوا قلة، وانهزام المسلمين وفرارهم ولو كانوا كثرة، فانعكست الحال التي كانوا عليها في صدر الإسلام كما جاء في قوله تَعَالَى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] وقوله تَعَالَى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

فما بال هؤلاء الأندلسيين يسرعون إلى الفرار، وما بالهم لا يَثْبُتون في الحرب وقد أمروا بالثبات:

أَنَعْمَى عَنْ مَرَاشِدِنَا جَمِيعًا
وَمَا إِنْ فِيهِمُ إِلَّا بَصِيرُ

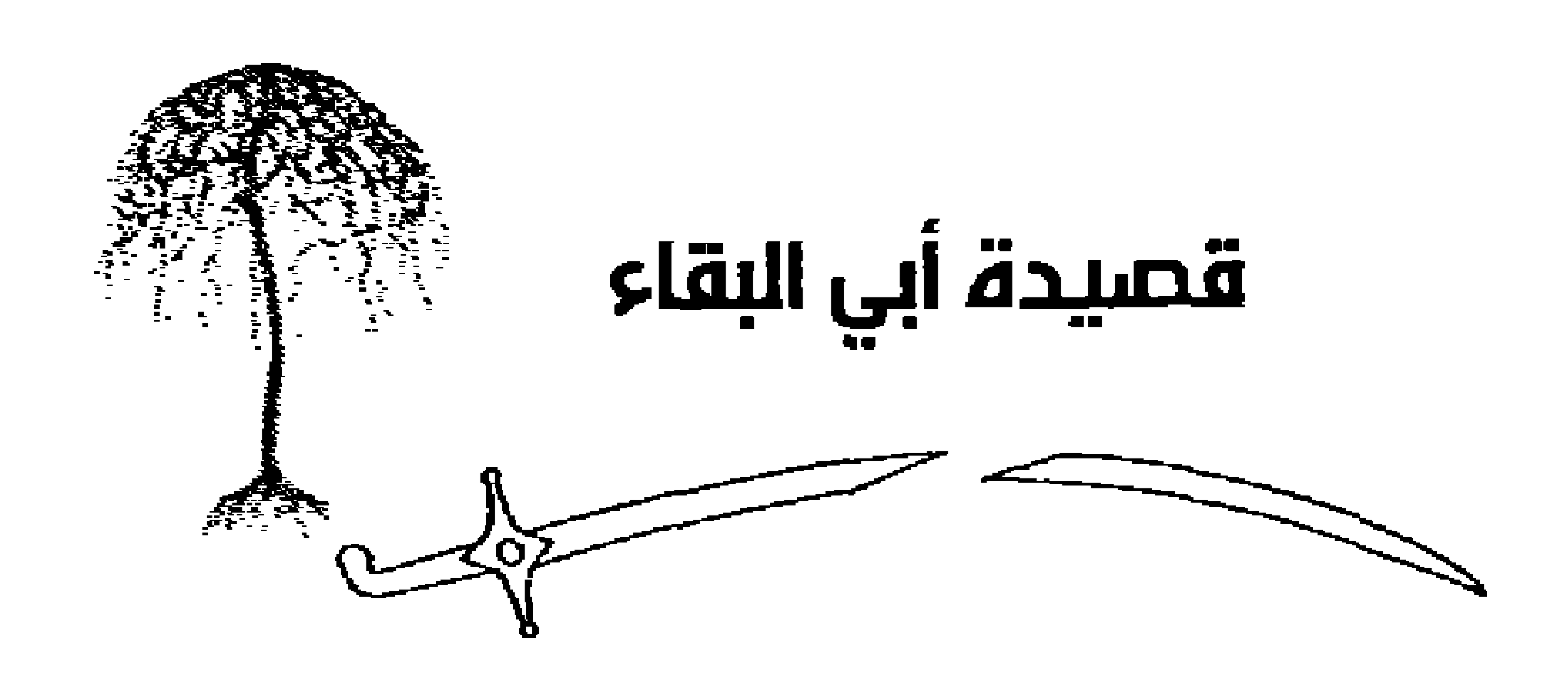
ونَلْقَى وَاحِدًا ويَفِرُّ جَمْعٌ
كَمَا عَنْ قَانِصٍ فَرَّتْ حَمِيرُ!

وَلَو أَنَّا ثَبَتْنَا كَانَ خَيْرًا
وَلَكِنْ مَا لَنَا كَرَمٌ وَخِيرُ

إِذَا مَـا لَـمَ يَكُـنْ صَـبْرٌ جَـمِيـلٌ
فَلَيـسَ بِنَـافِـعٍ عَـددٌ كَثِـيـرُ
أَلَا رَجُـلٌ لَـهُ رَأْيٌ أَصِـيـلٌ
بِـهِ مِـمـا نُـحَـاذِرُ نَسْتَـجِـيرُ؟!

إلى هذا الحد بلغ الفقر في الرجال ذوي الرأي الأصيل، والعزم الجليل في تلك الفترة التي بدأ فيها النَّزْف في جسد الدولة الإِسلامية في الأندلس.

* * *



قصيدة أبي البقاء

حتى القصيدة المشهورة في رثاء الأندلس لأبي البقاء صالح ابن شريف الرُّنْدِي لا تخلو من تلك النزعة القدرية التي تصوِّر هذا السقوط كأنه قدرٌ لازبٌ كان لا بد أن يقع، ونقص لازم لحصول الكمال.

ويظن بعض الناس أن الرُّنْدِي قال تلك القصيدة بعد استيلاء النَّصارى على كل الممالك الإسلامية بالأندلس، والحقيقة غير ذلك، فقد قالها الرنديُّ؛ ليبعث العزائم على نصرة الدين، وإنقاذ ما بقي من البلاد من هجوم الكافرين.

لكن الشاهد هنا هو هذه النغمة المتعلِّلة بجريان الأقدار، وحتمية النقص بعد التمام؛ إذ يقول الرندي:

لِكُلِّ شَيءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ
فَلَا يُغَرُّ بِطِيبِ الْعَيشِ إِنْسَانُ

هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ
مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ
وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ

يُمَـزِّقُ الدَّهْــرُ حَتْمًـا كُــلَّ سَابِغَــةٍ
إِذَا نَبَـتْ مَشْرِفِيَّــاتٌ وَخِـرْصَــانُ[١]

إلى أن يقول:

دَهَــى الْـجَزِيــرَةَ أَمْـرٌ لَا عَـزَاءَ لَـهُ
هَــوَى لَــهُ أُحُــدٌ وَانْهَــدَّ ثَهْــلَانُ

أَصَابَهَـا الْعينُ فِـي الْإِسْلَامِ فَارْتُزِئَتْ
حَتَّـى خَلَـتْ مِنْـهُ أَقْطَـارٌ وَبلْــدَانُ

فهذا الافتتاح أبعد ما يكون عن الغرض، إن قلنا: إنَّ أبا البقاء قد قصد من قصيدته هذه التحميس والتحريض على منازلة العدو واسترجاع المدن الإسلامية من قبضته.. فإذا كان النقصان لا بد لاحقًا للتمام، وكانت عين الحسد قد أصابت الإسلام، فلا لوم إذن على المفرطين ولا توبيخ للمتخاذلين المقصِّرين.. لولا أن الرنديَّ قد اتجه بعد هذه المقدمة الطويلة التي تصلح عزاء للمحزونين، وتهوينًا للأمر على المهزومين، إلى مناداة ملوك المسلمين ومخاطبة الشعوب الإسلامية الآمنة الغافلة عن هذا المصير.

يَـا أَيُّـهَــا الْـمَــلِكُ الْبَيْضَـاءُ رَايَتُـهُ
أَدْرِكْ بِسَيْفِـكَ أَهْـلَ الْكُفْـرِ لَا كَانُـوا

يَـا رَاكِبِـينَ عِتَــاقَ الْـخَيْـلِ ضَامِـرَةً
كَأَنَّهَــا فِـي مَجَــالِ السَّبْـقِ عِقْبَــانُ

---

(١) الخرصان: الرماح.

وَحَامِلِينَ سُيُوفَ الْهِنْدِ مُرْهَفَةً
كَأَنَّهَا فِي ظَلَامِ النَّقْعِ نِيرَانُ
وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ البَحْرِ فِي دَعَةٍ
لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وَسُلْطَانُ
أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَهْلِ أَنْدَلُسٍ
فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَومِ رُكْبَانُ
كَمْ يَسْتَغِيثُ بِنَا الْمُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ
أَسْرَى وَقَتْلَى فَمَا يَهْتَزُّ إِنْسَانُ
مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ
وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانُ
أَلَا نُفُوسٌ أبِيَّاتٌ لَهَا هِمَمٌ
أَمَا عَلَى الْخَيرِ أَنْصَارٌ وَأَعْوَانُ[1]

لكنهم كانوا في غفلة عن هذا النداء، قانعين بالتحسُّر والبكاء.. مشاركين بذلك المدن والمساجد والمنابر التي كانت تبكي فراق الحنيفية كما قال أبو البقاء:

حَتَّى الْمَحَارِيب تَبْكِي وَهيَ جَامِدَةٌ
حَتَّى الْمَنَابِرَ تَرْثِي وَهيَ عِيدَانُ!

وتستمر النزعة القدرية ظاهرةً في النصوص الأندلسية

(١) أزهار الرياض (١/ ٤٧ - ٤٩).

والمغربية عامة، حتى نهاية المأساة..

فقد كتب ابن عميرة المخزوميُّ رسالة إلى أبي عبد اللَّـه بن الأبَّار يذكر له فيها أخذ العدو مدينة بَلنْسِية، وهي مُثْقلة بالتكلُّف اللفظيِّ، والتزام السجع الذي لم يكن له من مناسبة في تلك النوازل العصيبة، وهو سبب آخر من أسباب المأساة نشير إليه بعد، وقد حلَّى رسالته تلك بنظم في تلك المناسبة المفجعة ختمه بقوله:

كَذَاكَ إِلَى أَنْ صَاحَ بِالقَومِ صَائِحٌ
وَأَنْذر بِالبَيْنِ الْمُشَتِّتِ مُنْذِرُ
وفرَّقهُم أَيدي سَبَا وَأَصابهُمْ
عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُمْ قَضَاءٌ مُقَدَّرُ[1]

أما رسالة ابن الأبار التي كانت رسالة المخزوميِّ جوابًا عنها، فقد تضمنت المعنى نفسه؛ إذ يقول فيها: « وأما الأوطان المحبَّب عهدها بحكم الشباب، المشبَّب فيها بمحاسن الأحباب، فقد ودَّعنا معاهدها وداع الأبد، وأخنى عليها الَّذي أَخْنَى على لُبَد، أَسْلمها الإِسلام، وانتظمها الانتثار والاصطلام حين وقعت أَنْسُرُها الطائرة، وطلعت أَنْحُسُها الغائرة، فغلب على الجَذَل الحَزَن، وذَهب مع المسْكَن السَّكَن ».

إلى أن يقول: « أين بلنسية ومغانيها، وأغاريد وُرْقها وأغانيها.. ما هذا النفح بالمعمور، أهو النفخ في الصُّور، أم النَّفْر

(١) نفح الطيب (٤/ ٤٩٥).

عاريًا من الحج المبرور، وما لأندلس أصيبت بأشرافها ونُقصت من أطرافها، قوِّض عن صوامعها الأذان، وصَمَّت بالنواقس فيها الآذان، أجنَتْ ما لم تَجْنِ الأصقاع؟ أعقَّت الحقَّ فحاق بها الإيقاع؟ كلا بل دانت للسُّنة، وكانت من البدع في أحصن جُنَّة..، فليت شعري بم استوثق تمحيصها، ولِمَ تعلَّق بعموم البلوى تخصيصها؟! اللَّهم غَفْرًا طالما ضَرَّ ضَجَر، ومن الأنباء ما فيه مُزْدَجر، جَرى بما لم نقدِّره المقدور، فما عسى أن ينفث به المصدور، وربنا الحكيم العليم، فحسبنا له التفويض والتسليم »[1].

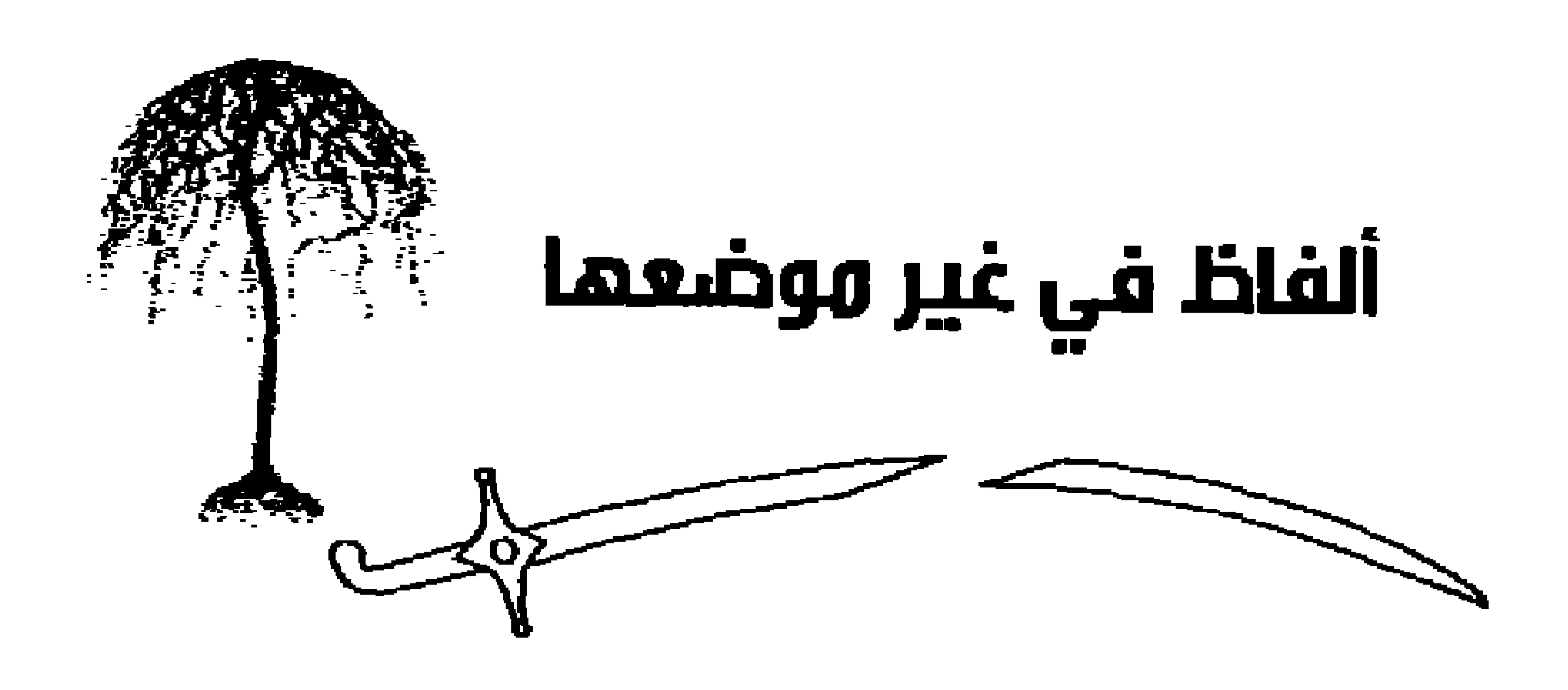
أفلم يَبْلغ ابنَ الأبَّار تراخِي أهل بلنسية وجهلهم بفنون الحرب، وإقبالهم على الأكل والشرب، وخروجهم لملاقاة أعدائهم بملابس الزينة، وانخداعهم بخدع الكافرين؟

فهل في هذا التخاذل والتفريط اتباع للسنة ومجانبة للبدعة؟

فكيف يتساءل عن السبب في هذا العقاب، ويتجاهل عصيان أهل بلنسية للأمر باتخاذ الأسباب.

* * *

(١) نفح الطيب (٤/ ٤٩٧، ٤٩٨).



ألفاظ في غير موضعها

* إن المؤسف في أمر أهل الأندلس في تلك الفترة الحالكة السواد أنهم خلطوا بين الأمور، واستعملوا الألفاظ في غير مواضعها، فمواجهة الأعداء لا تقابل بالأمر بالصَّبر، وانتظار اللطف، وتأميل كشف الضر..، بل إنَّ لها سبيلًا آخر هدى إليه الكتاب العزيز في مثل قوله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] وقوله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقوله عزَّ من قائل: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

لكنك تعجب حين تسمع قول قاضي الجماعة بغرناطة أبي عبد اللَّـه محمد بن علي بن الأزرق حين نزل طاغيةُ النَّصارى بمرج غرناطة وآذنت شمس المسلمين بالأندلس بالغروب:

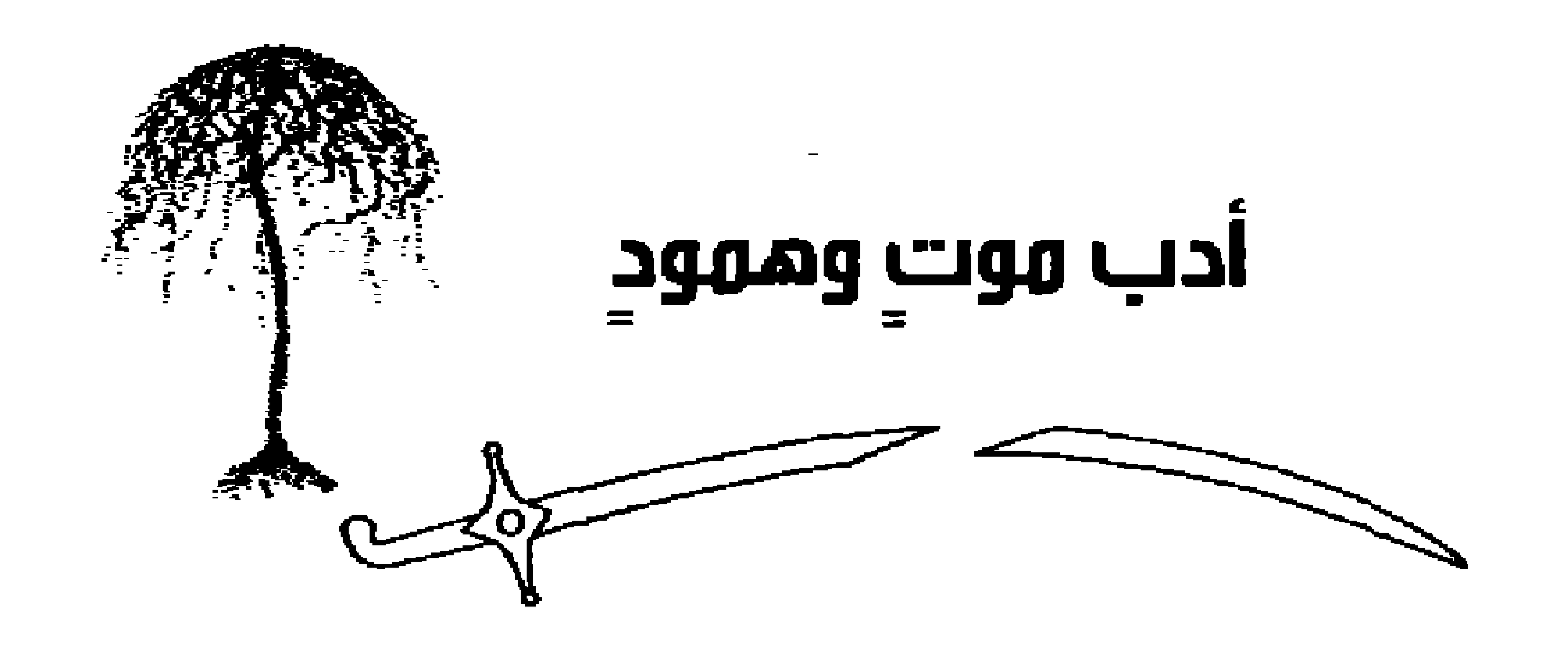
رُوَيْـدَكَ فَارْقُـبْ لِلطَّائِـفِ مَوْضِعًـا
وَخَــلِّ الَّــذِي مِــنْ شَــرِّه يُتَوقَّــعُ

وَصَـبْرًا فَـإنَّ الصَّــبْرَ خَــيرُ غَنِيمَــةٍ
وَيَا فَوزَ مَنْ قَـدْ كَـانَ لِلصَّبْرِ يَرْجِـعُ

وَبِتْ وَاثِقًا باللُّطْفِ مِنْ خَيرِ رَاحِمٍ
فَأَلْطَافُهُ مِنْ لَمْحَةِ الْعَينِ أَسْرَعُ
وَإِنْ جَاءَ خَطْبٌ فَانْتَظِرْ فَرَجًا لَهُ
فَسَوفَ تَرَاهُ فِي غَدٍ عَنْكَ يُرْفَعُ
وَكُنْ رَاجِعًا للَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ
فَلَيسَ لنَا إِلَّا إِلَى اللَّه مَرْجِعُ

أفهذه نصيحة تُهْدَى لمن وقف الأعداء ببابه ونازعوه دينه ودنياه.. أيقال له بِتْ واثقًا باللطف وانتظر الفرَج فسوف يُرْفع عنك البلاء؟!

***



أدب موتٍ وهمودٍ

إنه أدب موت وهمود، لا أدب جهاد واستبسال.. وإذا كان الأدب صورةً للحياة، فإن مثل هذه الأشعار تدل على ضياع الروح القتالية، ونسيان العزائم البطولية التي كانت لأسلافهم.

وإذا بحثت عما كان يشغل ابن الأزرق وأشباهه في تلك الفترة، وجدتها ألغازًا نحوية، وطرائف أدبية ومماحكات لفظية صرفوا إليها جهدهم واستفرغوا فيها وسعهم..

وفي أخبار ابن الأزرق هذا أنه هرب من الأندلس بعد أن استولى العدو عليها ودخل تلمسان، ثم ارتحل إلى المشرق، فدخل مصر واستنهض عزائم السلطان قايتباي؛ لاسترجاع الأندلس، فكان كمن يطلب بيض الأَنُوق أو الأبيض العَقُوق - كما قال المقري - ثم حج ورجع إلى مصر، فجدَّد الكلام في غرضه، فدافعوه عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس، ولم تطل مدته هناك حتى تُوفِّيَ به بعد سنة خمس وتسعين وثمانمائة[1].

أفلم يكن أولى به أن يبذل نفسه للشهادة في مدافعة الأعداء عن وطنه المنكوب، بدلًا من التماس الوظائف في الأقطار الآمنة، بحجة التحريض على استرجاع الأندلس؟

---

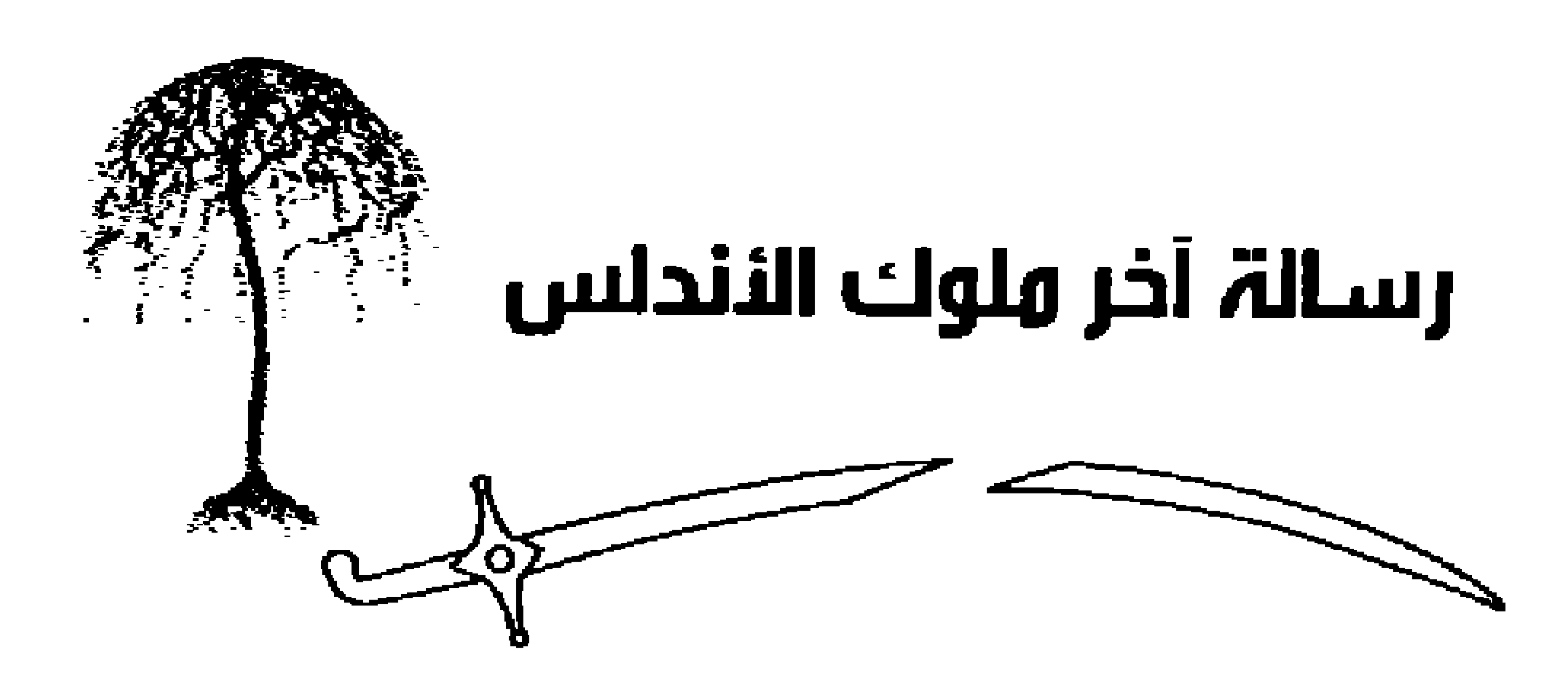
(١) نفح الطيب (٢/ ٧٠٢). والأنوق: جمع ناقة وهي لا بيض لها.

ولماذا لم يصنع صنيع الحافظ المحدِّث أبي الربيع الكُلَاعيِّ الأندلسيِّ الذي كان عمره سبعين سنة ومع ذلك قاتل الصليبيين بيده، واستشهد في موقعة (أنيشة) سنة أربع وثلاثين وستمائة، ولم يزل متقدمًا أمام الصفوف، زحفًا إلى الكفار مقبلًا على العدو ينادي بالمهزومين من المسلمين: « أمِنَ الجنة تفرُّون؟ » حتى قُتل صابرًا محتسبًا. وقد رثاه تلميذه ابن الأبَّار بقصيدة ميمية طويلة أولها:

أَلِـمَّـا بأَشْـلَاءِ العُـلَا وَالْـمَكَـارِمِ
تُقَـدُّ بِأَطْـرَافِ الْقَنَـا وَالصَّـوارِمِ
نُحيِّـي وجُوهًـا فـي الجِنَـانِ وَجِيهَـةً
بِمَا لَقِيَتْ حُـمْـرًا وُجُوهَ الْـمَلَاحِـمِ[1]

* * *

(١) نفح الطيب (٤/ ٤٧٣).



رسالة آخر ملوك الأندلس

أما الفاجعة المبكية حقًّا في التعلُّل بالأقدار في تلك المأساة، فهي ما جاء في كتاب آخر ملوك المسلمين بالأندلس أبي عبد اللَّـه ابن الأحمر المخلوع، الذي بعث به إلى صاحب فاس في ذلك العهد تمهيدًا لعذره، وتوطئةً لمقصده، وتطارحًا على تلك الأبواب وتملُّقًا، وتمسُّكًا بذلك الجَناب وتعلُّقًا[1].

وقد وصف ذلك الخطاب صاحب أزهار الرِّياض بأنه « في الغاية من الفصاحة والبلاغة » وهو من إنشاء الفقيه الأديب الشاعر الناظم الكاتب المجيد البارع البليغ أبي عبد اللَّـه محمد ابن عبد اللَّـه العربيِّ، العقيليِّ وسماه بالروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس.

وفي القصيدة التي صدَّر بها ذلك الخطاب يقول:

مَوْلَى الْـمُلُوكِ مُلُـوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ
رَعْيًـا لـمـا مثلـه يُرْعَـى مِـنَ الذِّمَـمِ
بِكَ اسْتَجَرْنَا وَنِعْمَ الْـجَارُ أَنْتَ لِـمَنْ
جَـارَ الـزَّمَـانُ عَلَيْــهِ جَــوْرَ مُنْتَقِـمِ

---

(١) أزهار الرياض (١/ ٧٢).

حَتَّى غَدَا مُلْكُهُ بِالرَّغْمِ مُسْتَلَبًا
وَأَفْظَعُ الخَطْبِ مَا يَأْتِي عَلَى الرَّغْمِ
حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ حَتْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ
وَهَلْ مَردٌّ لِحُكْمٍ مِنْهُ مُنْحَتِمِ؟

وهذا هو الخداع واللعب بالألفاظ، والاستتار بالتسليم للقدر، وإسقاط المسؤولية عن الجُناة الذين مالأوا الأعداء، ووثقوا بعهودهم، واستناموا للعيش في حمايتهم، وهل ننسى أن ابن هود الحاكم المسلم الخائن هو الذي قدِم مع النَّصارى إلى مُرْسِيَة فسلَّمها لهم صلحًا..، وأنه كان معينًا لهم في أكثر أعمالهم ضدَّ إخوانه المسلمين..؟

نعم إنه حكم من اللَّـه.. على من خانوا الأمانةَ، ونقضوا عهدهم معه، وفرَّطوا في واجبهم، فهذه سُنَّة اللَّـه في خَلْقه ولن تجد لسنة اللَّـه تبديلًا.. لكن ابنَ العربيِّ يتحدث على لسان سلطانه المخلوع محاولًا التبرؤ من الذنب والتنصُّل من الخيانة، بدعوى أنه لا يطيق دفاعًا للقدر:

لَا تَأْخُذَنَّا بِأَقْوَالِ الْوشَاةِ وَلَمْ
نُذْنِبْ وَلَو كَثُرَتْ أَقْوَالُ ذي الوَخَمِ
فَمَا أَطَقْنَا دِفَاعًا لِلْقَضَاءِ وَمَا
أَرَادَتْ أنفُسَنَا مَا حَلَّ مِنْ نِقَمِ
وَالْمَرْءُ مَا لَمَ يُعنه اللَّهُ أَضْيَعُ مِنْ
طِفْلٍ تَشَكَّى بِفَقْدِ الْأُمِّ فِي الْيُتْمِ

وَكُلُّ مَـا كَـانَ غَـيرُ اللَّـه يَحْرُسُـهُ
فَـإِنَّ مَحْرُوسَـهُ لَـحْـمٌ عَلَـى وَضَـمِ
وَلَا تُعَاتِبْ عَلَـى أَشْيَـاءَ قَـدْ قُـدِرَتْ
وَخُطَّ مَسْطُورُهَا فِـي اللَّـوحِ بِالْقَلَـمِ

***



جبرية تأباها روح الإسلام

* هذا ما نقف عنده ونطيل العجب، ونراه من أكبر أسبابِ المأساة، أن يستنيمَ المسلمون إلى مثل هذا الفهم، وأن يستكينوا في منازلة العدو بحجة أنهم ضحايا لما خُطَّ في اللوح بالقلم، فهذه جَبْرِيَّةٌ تأباها روح الإسلام وتواكلية تفسر هذه الأحداث الجسام.. فهذا الشاعر الناطق عن مراد سلطانه يزعم أنهم افتقدوا عون اللّـه سبحانه وأن اللّـه لم يحرس ملكهم من الانهيار..، ولو شاء اللّـه لما تغلب عليهم أعداؤهم ولما أزاحوهم عن بلادهم..، وهذا شبيهٌ بجدل المشركين الذين كانوا يتمسكون بعُرَى الوثنية ثم يقولون: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ونسوا أن الإنسان مطالَب بالسعي وتغيير ما بنفسه من أسباب الخذلان والهوان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]. لكن هذا الشاعر يدعو إلى الرضا بالقضاء الجاري، ويبحث لسلطانه عن ملجأ آمن يأوي إليه:

لَكِنْ رِضًا بِالْقَضَا الْـجَارِي وإِنْ طُوِيتْ
مِنَّـا الضُّلُـوعُ عَلَـى بَـرْحٍ مِـنَ الْأَلَـمِ

لبَّيْـكَ يَـا مَـنْ دَعَانَـا نَحْـوَ حَضْرَتِـهِ
دُعَـاءَ إِبْـرَاهِيـمَ الـحُجَّـاجَ لِلْحَـرَمِ
وَأعْطِ الْأَمْـنَ الَّـذِي رُصَّـتْ قَواعِـدُهُ
عَلَـى أَسَـاسِ وَفَـاءٍ غَـيرِ مُنْـهَـدِمِ

أما الرسالة التي تلت هذه القصيدة الطويلة المملوءة بفنون التزلُّف والمصانعة، فقد اتسعت لبيان فكرة الاعتذار بالمقادير، والتنصُّل من مسؤولية التفريط والمالأة للعدو، وفيها يقول:

« أكثر المكثرون، وجَهَد في تعثيرنا المعثِّرون، ورمَوْنا عن قوسٍ واحدة، ونظَمونا في سِلْك الملاحدة، أكُفْرًا أيضًا كفرًا، غفْرًا اللهم غفرًا، أعِذْ نظرًا يا عبد قيس، فليس الأمر على ما خيِّل لك ليس، وهل زِدْنا على أنْ طلبنا حقَّنا مِمَّنْ رامَ مَحْقَه ومَحْقَنا، فطاردنا في سبيله عُدَاةً كانوا لنا غائظين، فانفتق علينا فَتْق لم يُمْكنَّا له رَتْقٌ، وما كنا للغيب حافظين.

وبعدُ: فاسأل أهل الحَلِّ والعَقْد، والتمييز والنقد، فعند جُهَيْنتهم تَلْقى الخبر يقينًا، وقد رضينا بحكمهم، يؤثمنا فيوبقنا أو يبرئنا فيقينًا. إيه يا مَنْ اشرأبَّ إلى ملامنا، وقدح حتى في إسلامنا رُوَيْدًا رُوَيْدًا، فقد وجدت قوةً وأَيْدًا، ويحك إنما طال لسانك علينا وامتدَّ بالسُّوء إلينا؛ لأن الزمان لنا مصغِّر ولك مُكَبِّر، والأمر عليك مُقْبل وعنا مُدْبِر.. وعلى الجملة فهَبْنا صِرْنا إلى تسليم مقالك جدلًا، وذهبنا فأقرَرْنا بالخطأ في كل وِرْدٍ وصَدَر، فلله درُّ القائل: إن كُنت أخطَـأْتُ فما أخْطَـأَ القَدَر! ».

ويمضي ابنُ العربيِّ في حديثه على لسان سلطانه المخلوع الناجي بنفسه وأهله إلى بلاد المَغْرب، فيحتجُّ بقوله ﷺ: « كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ ».

وبقوله ﷺ في حديث ابن عباس: « وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّـهُ لَكَ، وَإِن اجتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّـهُ عَلَيْك »[1].

ثم يقول لِلَّائم: « حينئذ نقول له والحق قد أبان وجهه وجلاه، وقَهَره بحجته وعَلَاه: ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] في محاجَّة آدمَ موسى ما يقطع لسان الخَصْم ويَرْحض عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يَعْلَق بها مِنْ دَرَن الوَصْم ».

فانظر إلى هذه المجادلة التي يحاول فيها منشئ هذه الرسالة البليغة أن يلتمس العذر لسلطانه في تفريطه ونجاته بنفسه وماله وأهله.. وتركه المسلمين يقاسون أبشع أنواع الاضطهاد، وأشنع ألوان القتل والتنكيل، ولو أنه قُتِل في مدافعته للأعداء لكان خيرًا له وأكرم، وأبْعَد له من الذمِّ وأسْلَم.. لكنه كما يقول عنه ابن العربي: « إذن فمن سَلِمت له نَفْسه التي هي رأس ماله، وعيالُه وأطفاله اللذان هما من أعظم آماله، وكل أو جُلّ أو أقل رِيَاشه، وأسباب معاشه، الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه، ثم وجد

(١) رواه البخاري.

مع ذلك سبيلًا إلى الخلاص، في حال مُيَاسَرةٍ ومساهلة، دون تصعب واعتياص، بعدما ظنَّ كل الظنِّ أن لا محيد ولا مَنَاص، فما أحقه حينئذ وأوْلاه أن يَحْمَد خالقه ورازقه ومولاه، على ما أسْدَاه إليه من رِفْده وخيره ومعافاته مما ابتلي به كثيرٌ مِنْ غيره، ويرضى بكل إيراد وإصدار، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار، فالدهر غَدَّار، والدنيا مشحونة بالأكدار، والقضاء لا يُردُّ ولا يُصَد ولا يُغَالَب ولا يُطَالَب، والدائرات تدور، ولا بد من نقص وكمال للبدور، والعبد مطيعٌ لا مُطَاع، وليس يطاع إلا المستطاع، وللخالق القدير جلَّت قدرته في خليقته عِلْم غيب للأذهان عن مداه انقطاع »[1].

أفهذا فكر أمة وقفت في مواجهة عدو يستهدف إفناءها ويريد إقصاءها؟

إذن فلا جهاد ولا استعداد، ولا خطة ولا تدبير، ولا كَرّ ولا فر، وهؤلاء هم الذين واجهوا جحافل الكفار الحاقدين في آخر معاقل المسلمين بالأندلس، فكان لا بد أن ينهزم هؤلاء المتواكلون المنتظرون حكم القضاء، الموطِّنون أنفسهم على الرضا بالبلاء، فقد آن لِبَدْرهم أن يصيبه المِحَاق، وللدائرة أن تدور عليهم!

هكذا كان استعدادهم، وهكذا كانت روحهم المعنوية المنهزمة سلفًا..

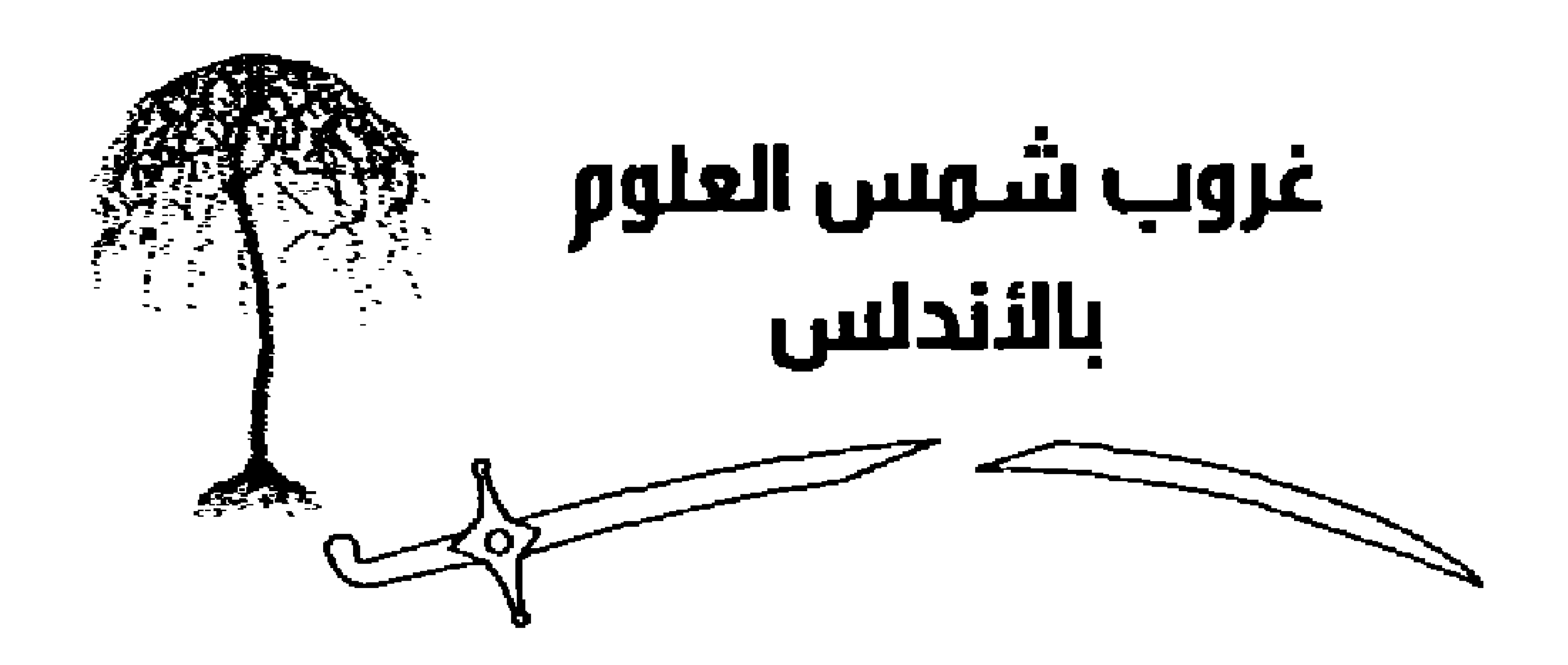
---

(١) أزهار الرياض (١/ ٩٠).

وما أعجب هذا السلطان المخلوع الذي يفرح بسلامة نفسه التي هي رأس ماله، وسلامة أهله وأطفاله، وكل أو جُلِّ أو أقل رِيَاشه، ويحمد اللَّـه على معافاته مما ابتلي به كثيرًا من خَلْقه!!

وهؤلاء الـخَلْق هم رعيته التي أسلمها للقهر والنَّكَال والتنصير والقتل، وقد كان أشرف له أن يموت أمامهم مجاهدًا في سبيل اللَّـه لينال إحدى الحسنيين، لكنَّ هذا النص يُدِينه ويدين كاتبه، ويدين الفكر الذي يعبِّر عنه.

***



* لم يكن عجيبًا أن يصاحب هذا الاضمحلال السياسيَّ والعسكريَّ اضمحلال علميٌّ في ربوع الأندلس، التي بلغت ذروة التَّقدُّم في قرونها الأولى حين كان الأمن سابغًا، والرخاء عامًّا، والدولة واحدة.

ولكن أمرها في قرون الانحلال كان في جانب العلم كما قال ابن خلدون في مقدمته: « ثم إن الغرب والأندلس لَمَّا ركَدت ريح العمران بهما، وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحلَّ ذلك منهما إلا قليلًا من رسومه، تجدها في تفاريقَ من الناس وتحت رُقْبَة من علماء السنة، كذلك بلغنا لهذا العَهْد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإِفرنجة من أرض (رومة) وما إليها من العدوة الشمالية نافقةَ الأسواق، وأن رسومها هناك متجدِّدة، ومجالس تعليمها متعدِّدة، ودواوينها جامعة متوفرة، وطلبتها متكثرة، واللَّه أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار »[1].

هذا عن العلوم العقلية؛ أما عن العلوم التجريبية فقد انحسر ظلُّها عن بلاد الأندلس أيام المحنة أيضًا ويدلُّ على ذلك قول ابن خلدون عن علم الطب: « وكان في الإِسلام في هذه الصناعة

---

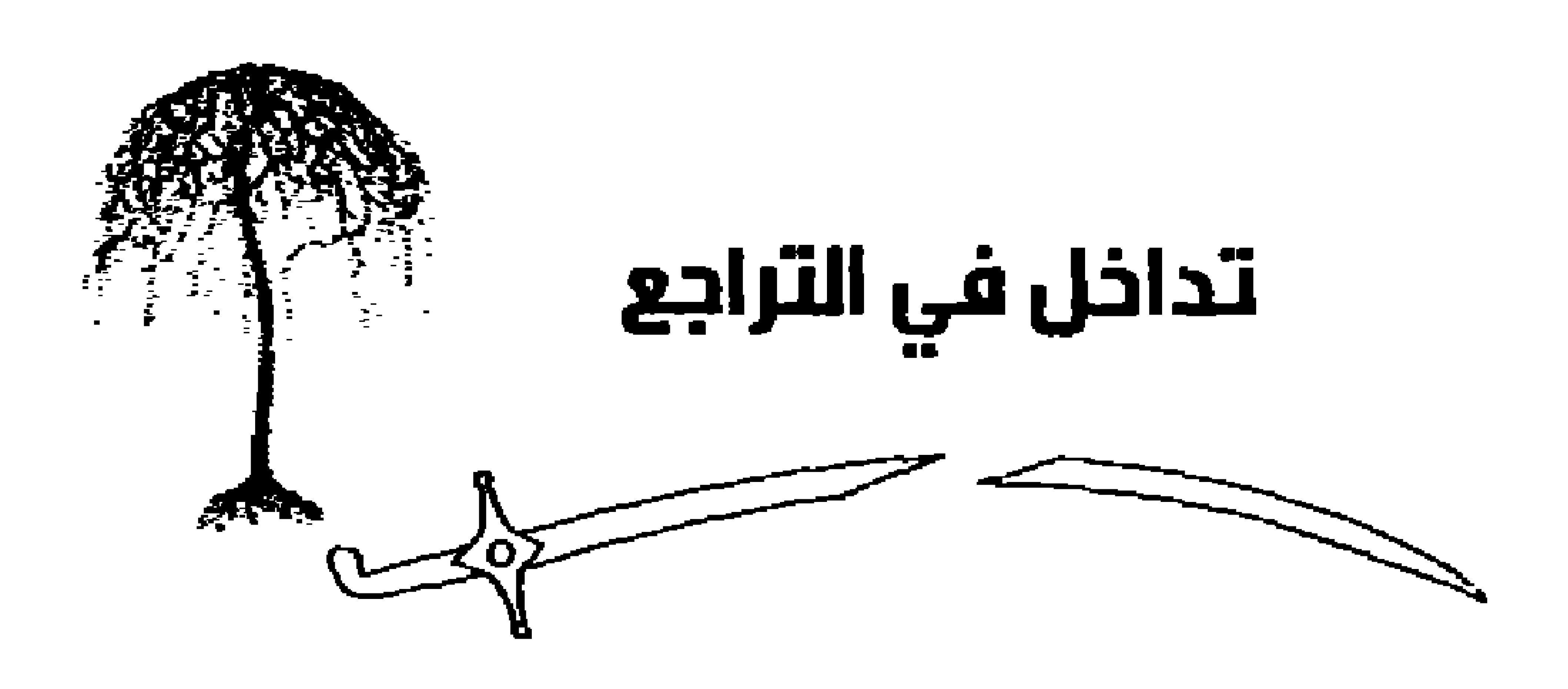
(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٨١).

أئمة جاؤوا من وراء الغاية؛ مثل: الرازيُّ والمجوسيُّ وابن سينا، ومن أهل الأندلس أيضًا، وأشهرهم ابن زهر، وهي لهذا العهد في المدن الإسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه، وهي من الصنائع التي لا تستوعبها إلا الحضارة والترف ».

حتى منهج التعليم والتربية في بلاد الأندلس، انتقص وتضاءل وانحصر في جوانب ضيقة من العلوم اللسانيَّة، وغاب الفكر والإبداع والاختراع، كما قرَّر ذلك ابن خلدون، وقد عاصر أواخر الدولة الإسلامية بالأندلس، بقوله: « وأما أهل الأندلس فذهب رَسْم التعليم من بينهم، وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين، ولم يبق من رسم العلم فيها إلا فن العربية والأدب، اقتصروا عليه، وانحفظ سند تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه، وأما الفقه بينهم فرَسْم خِلْو وأثرٌ بعد عين، وأما العقليات فلا أثَر ولا عَيْن، وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها إلا قليلًا بِسِيف البحر، شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها، واللَّـه غالب على أمره »[١].

***

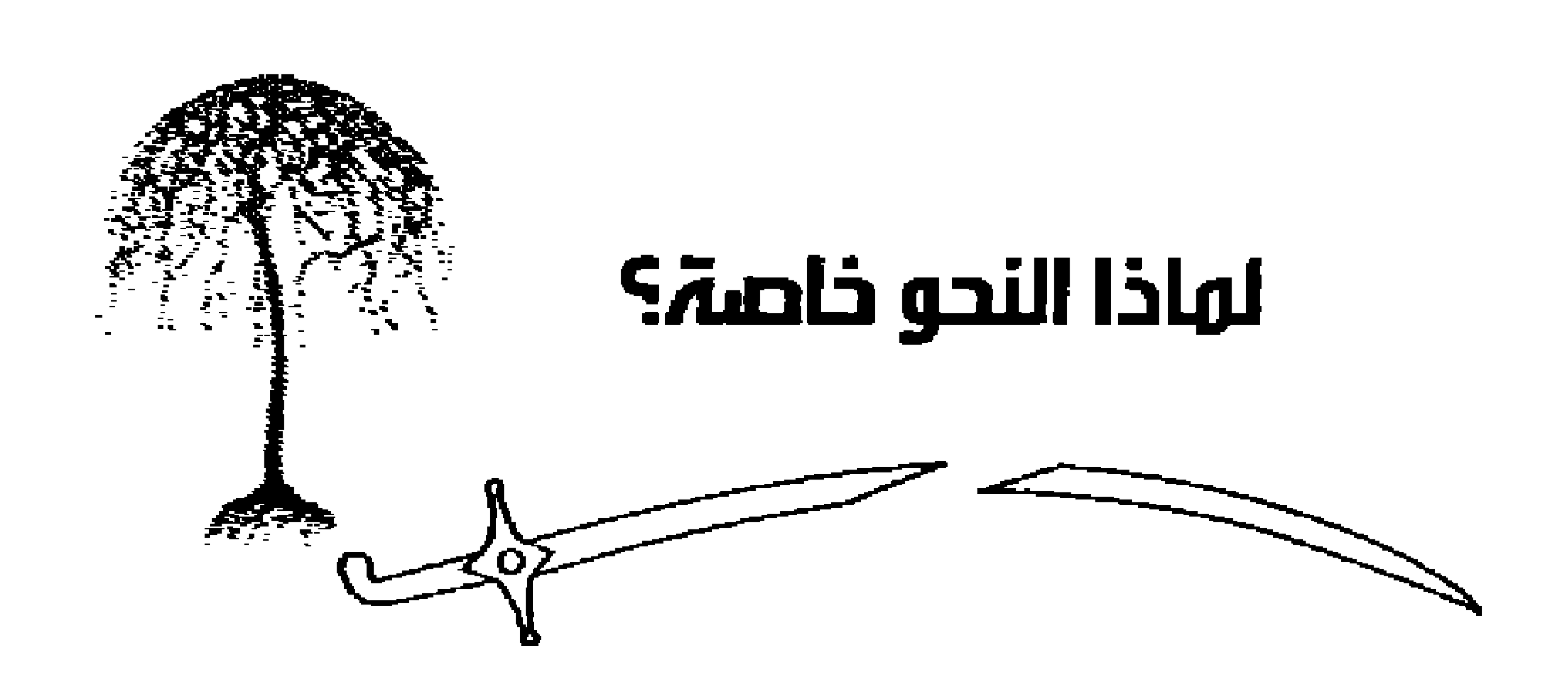
(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٣٢).



تداخل في التراجع

* فابن خلدون يرى أن هذا التّراجع في المجال العلميِّ في الأندلس راجع إلى تناقص العمران وغلبة العدو على عامة بلاد المسلمين..، ولكن لماذا لا يكون هذا التّراجع العمراني وهذه الغلبة للعدو راجعة إلى ضيق مساحة العلم في المجتمع الأندلسيِّ، والاشتغال بالحفظ والتقليد، والالتفات إلى الفوائد والمجرَّبات، والتعويل على العجائب والخرافات، والالتفات حول أدعياء الولاية وأقطاب الوقت.. بمعنى أنَّ الجهل سبَّب الضعف والهزيمة، وهو مقوض دعائم التقدم والمغالبة للأعداء، ويمكن الجمع بين الرأيين بأن الجهل والتقليد والولع بعلوم اللسان وحدها وجِد أولًا، فأدى ذلك إلى تناقص العمران وغلبة الأعداء، ثم أدَّى هذا التناقص وتلك الغلبة إلى مزيد من الجهل والتخلُّف العلميِّ، ثم أدى هذا المزيد من الجهل إلى مزيد من التناقص وهكذا.. حتى كانت الكارثة الأخيرة التي ضاع بها كل شيء.

***



ومن عجب أنْ يبرع أهل الأندلس في قرونهم الأخيرة في النحو خاصَّة، ويشتغلوا به نظمًا ونثرًا وتأليفًا وشرحًا وتلخيصًا، حتى يفوقوا أهل المشرق في ذلك!

وهذا ما عناه ابن خلدون بقوله: « إلا فن العربية والأدب ».. ويكفي أن نذكر ابن مالك صاحب التسهيل والألفية، وهو من أهل القرن السابع، الذي شهد قمة الغزو الصليبي للممالك الإسلامية بالأندلس، وقد رحل ابن مالك إلى القاهرة ثم إلى دمشق وبها مات. ومن الشعر البارد ما قاله الشرف الحِصْني في رثائه:

يَـــا شَتَــاتَ الأَسْمَـــاءِ وَالْأَفْعَـــالِ
بَعْـدَ مَـــوتِ ابْنِ مَـــالكِ الـمِفْضَـالِ

وَانْحِـرَافَ الْـحُـرُوفِ مِنْ بَعْدِ ضَبْطٍ
مِنْـهُ فِـي الْانْفِصَـالِ وَالْاتِّصَـــالِ

مَصْـدَرًا كَـانَ لِلْعُلُـومِ بِـإِذْنِ اللَّـه
مِـنْ غَـيـر شُبْـهَـةٍ وَمِـحَـــالِ

عَـــدِمَ الـنـعــتُ وَالـتَّـعـطُّـفُ
وَالتَّـوكِـيدُ مُسْتَبْـدَلًا مِـنَ الأَبْـدَالِ

أَلَـمٌ اغْـتَـرَاهُ أَسْـكَـنَ مِـنْـهُ
حَـرَكَـاتٍ كَـانَتْ بِغَـيـرِ اعْـتِلالِ
بـالْـهَـا سَكْـتَـةٌ لِـهَمْـزِ قَـضَـاءِ
أَوْرَثَـتْ طُـولَ مُـدَّةِ الانْفِـصَـالِ
رَفَـعُـوهُ فِـي نَعْشِـهِ فَـانْتَـصَبْنَـا
نَصْـبَ تَمْـيِيزِ كَيْـفَ سَـيْرُ الْـجِبَالِ

وهي مرثية طويلة قال عنها الصفديُّ: ما رأيت مرثية في نحوي أحسن منها!

وهذا يدلنا على عناية القوم بأشكال العلم وحفظهم لقواعده، دون ربط له بما يجري في الحياة.

بل اشتغلوا بالمفاضلة بين النحاة وكتبهم، كتلك المعركة التي أداروها حول ألفية ابن مالك التي كان أبو حيان يَغُضُّ منها ويقول عنها: ما فيها من الضوابط والقواعد حائد من منهج الصواب والسداد حتى قال في ذلك:

أَلْـفِـيَّـةُ ابْـنِ مَـالِـكِ
مَـطْـمُـوسَـةُ الـمَـسَـالِـكِ
وَكَـمْ بِـهَـا مُـشْـتَـغِـلِ
أُوقِـعَ فِـي الـمَـهَـالِـكِ

وردَّ عليه آخرون فقالوا:

أَلْـفِـيَّـةُ ابْـنِ مَـالِـكِ
مُـشْـرِقَـةُ الْـمَـسَـالِـكِ

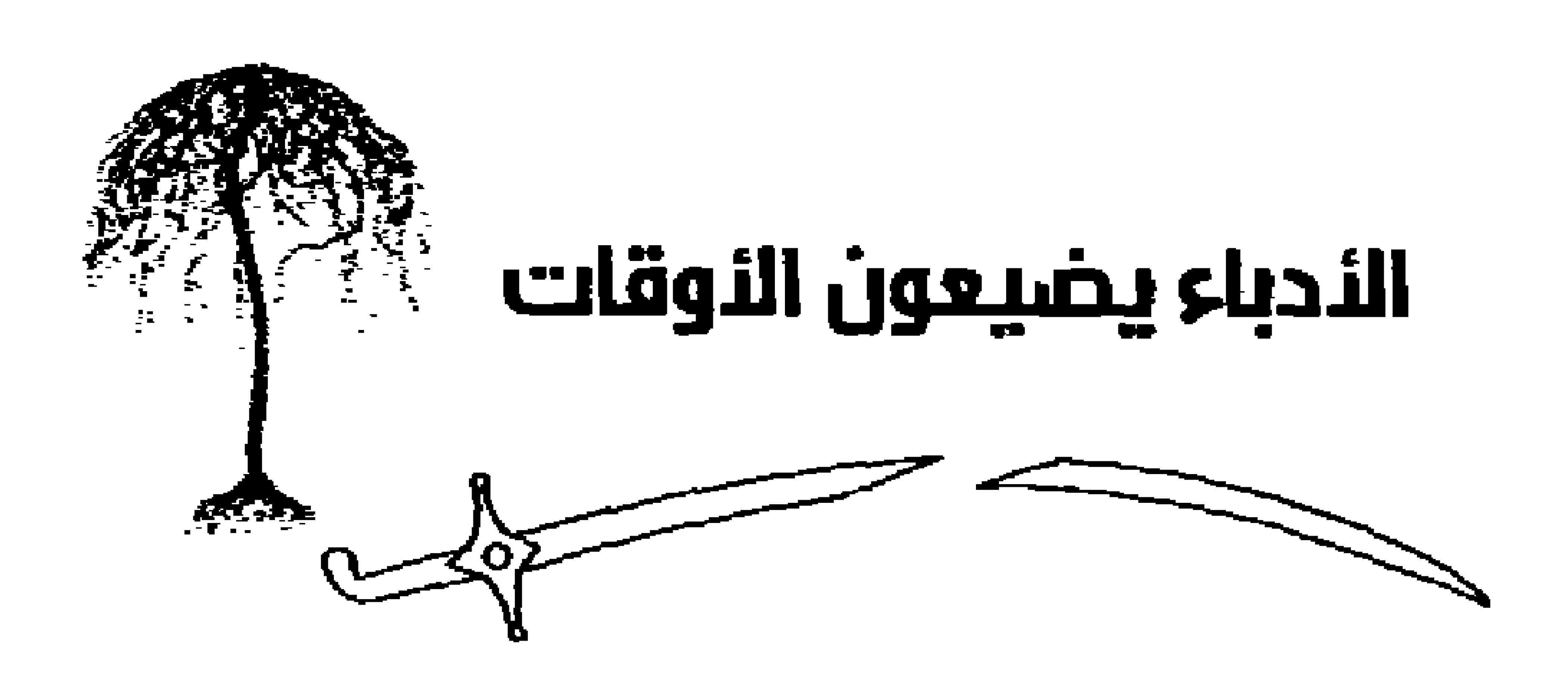
وكَـــمْ بـــهـــا مِـــنْ مُـشْـغَـــلِ
عَـــلَا عَـلَـــى الْأَرَائِـــكِ

وقارن آخرون بينها وبين ألفية ابن مُعْطي.

وفي القرون الأولى الماجدة لم تظهر الحاجة إلى الاشتغال بنظم العلوم، وإنما وقع ذلك عند جَدْب الأفهام والميل إلى الحفظ والتقليد.

ومع تقديرنا لجهود نُحَاة الأندلس، وأثرهم في جمع مسائل النحو والاجتهاد في بعض قضاياه حتى بلغ بعضهم مرتبة الإمامة فيه كابن مالك وأبي حيان، إلا أن صَرْف جهد الكثيرين منهم إلى تأليف المختصرات، واختصار المطولات، وكتابة المتون وشرحها، يدلُّ على خللٍ في توجيه التعليم، فإن بعض كتبهم يغني عن بعض، وإن آفاق العلم والمعرفة الضرورية لحياة المجتمع وقوته في مقاومة أعدائه كانت جديرة بصرف الهمم إليها.. هذه إشارةٌ مجملة إلى العناية الزائدة بعلوم العربية التي جعلها ابن خلدون الاهتمام الأول لأهل الأندلس في قرون المحنة، أما الاهتمام الثاني فهو الأدب.

***



وقد أسهم الأدباء كذلك في تضييع الأوقات والاشتغال بما لا يجدي في جانب الموضوعات، في الغزل بالمذكر ووصف المتنزهات، والألغاز والأحاجي، والمدائح المتكلفة.. والولَع بالمحسِّنات البديعية..

استمع إلى قول لسان الدين بن الخطيب وقد انتابه برغوث:

زَحَفَتْ إِلَيَّ رَكَائِبُ الْبرْغُوثِ
نَمَّ الظَّلَامُ بِرَكْبِهَا المَحْثُوثِ

بِالْحَبَّةِ السَّوداءِ قابَلَ مَقْدِمي
للَّه أيُّ قِرًى أعدَّ خَبِيثِ!

كُسِحَتْ بِهِنَّ ذُبَابُ سَرْحِ تَجَلُّدِي
لَيلًا فَحَبْلُ الصَّبْرِ جِدُّ رَثِيثِ

إِنْ صَابَرَتْ نَفْسِي أَذَاهُ تعَبَّدَتْ
أَو صِحْتُ مِنْه أَنِفْتُ مِنْ تَخْنِيثِ

جَيشَانِ مِنْ لَيْلٍ وَبرْغُوثٍ فَهَلْ
جَيشُ الصَّبَاحِ لِصَرْخَتي بِمغِيثِ[(١)]

ومن شعر ابن الخطيب يخاطب السلطان أبا عِنَان ويحثه على منازلة النصارى بالأندلس:

نَادَتْكَ أَنْدَلُسٌ وَمَجْدُكَ ضَامِنٌ
أَلَا يَخِيبُ لَدَيكَ ذُو مَطْلُوبِ
غَصَبَ الْعَدُوُّ بِلَادَهَا وَحُسَامُكَ الْـ
ـمَاضِي الشَّبا مُسْتَرْجِعُ المَغْصُوبِ
أَرْض السَّوابِحِ فِي الْمَجَازِ حَقِيقَةٌ
مِنْ كُلِّ قَعْدَةِ مُحْرَبٍ وجَنِيبِ
وَأَضِفْ إِلَى لَامِ الْوغى أَلِفَ الْقَنَا
تَظْهَرْ لَدَيكَ عَلَامَةُ التَّغْلِيبِ
حَتَّى إِذَا فَرَضَ الجلَادُ جِدالَه
وَرَأَيت رِيحَ النَّصْرِ ذَاتَ هُبُوبِ
قَدَّمْتَ سَالِبَةَ الْعَدُوِّ وَبَعْدَهَا
أُخْرَى بِعِزِّ النَّصْرِ ذَاتَ وجُوبِ
وَإِذَا تَوَسَّطَ وَصْلُ سَيفِكَ عِنْدَهَا
جُزْأَيْ قِيَاسِكَ فُزْتَ بِالمطْلُوبِ

(١) أزهار الرياض (١/ ٢٨٩).

الْأَرْضُ إِرْثٌ وَالْمَطَامِعُ جَمَّةٌ
كُلٌّ يَهشُّ إِلَى الْتِمَاسِ نَصِيبِ
وَخَلَائِفُ التَّقْوى هُمْ وُرَّاثُهَا
فَإِلَيكَهَا بِالْحَظِّ وَالتَّعْصِيبِ!

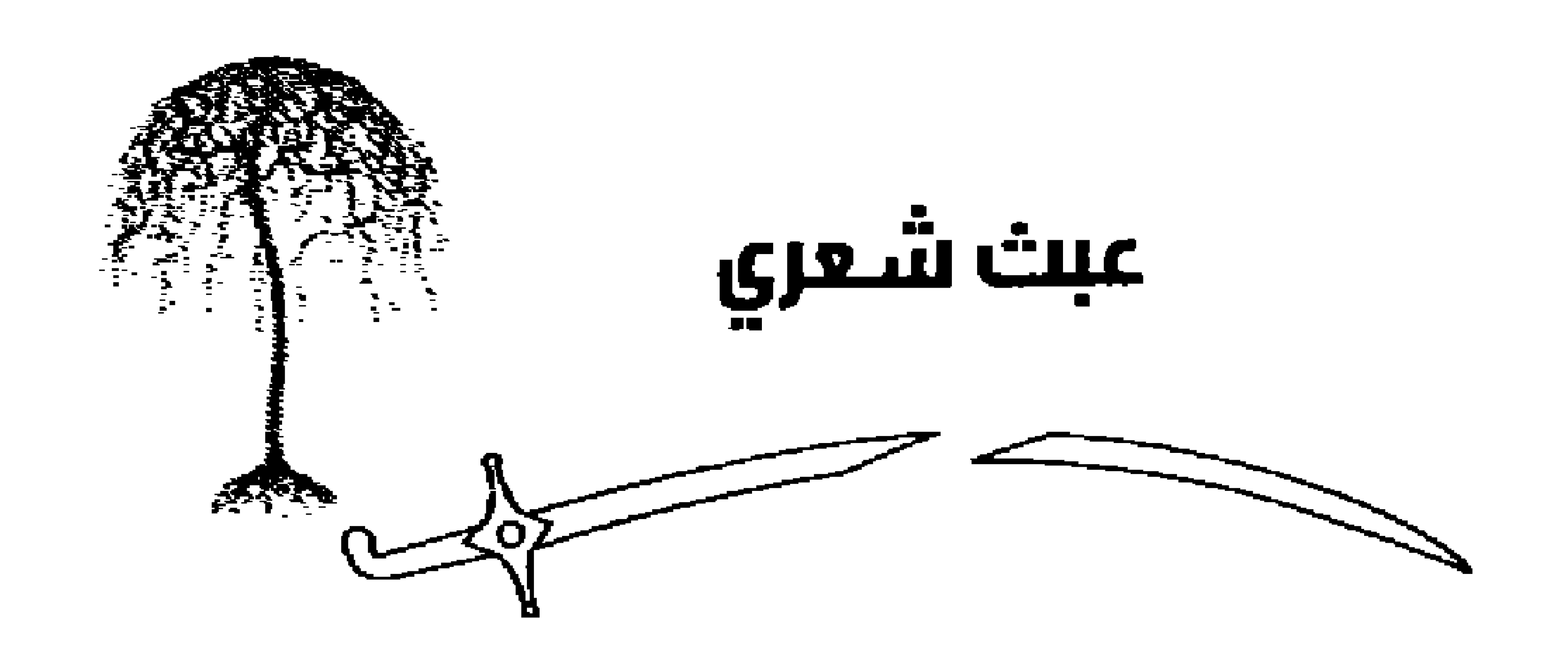
فانظر إلى هذا الشعر المثقل بمصطلحات النحاة والمناطقة والفقهاء. هل يناسب التحميس إلى مقارعة العدو واسترجاع ما غصبه من ديار المسلمين؟!.. بل إن ابن الخطيب يصف شعره بأنه في درجة شعر المتنبي وأبي تمام؛ إذ يقول:

مُتَنَبِّئٌ أَنَا فِي حُلَى تِلْكَ الْعُلَى
لَكِنَّ شِعْرِي فِيكَ شِعْرُ حَبِيبِ
وَالطَّبْعُ فَحْلٌ وَالْقَرِيحَةُ حُرَّةٌ
فَاقْبَلْهُ بَيْنَ نَجِيبَةٍ وَنَجِيبِ

وتغلب عليه المصطلحات مرة أخرى، فيجنح إلى مصطلح من علم الحساب فيقول:

إِنْ كُنْتُ قَدْ قَارَبْتُ فِي تَعْدِيلِهَا
لَا بُدَّ فِي التَّعْدِيلِ مِنْ تَقْرِيبِ!

* * *



وهذا شاعر آخر من الفترة نفسها، قبل سقوط آخر معاقل المسلمين في الأندلس بنحو قرن من الزمان هو أبو يحيى محمد بن عاصم، صاحب كتاب: (جنَّة الرِّضا في التسليم لما قدَّر اللَّه تَعَالَى - وقضى) وهو في الحديث عن نكبة المسلمين بالأندلس وأسبابها.. تراه يمدح السلطان أبا الحجاج يوسف بن ناصر بقصيدة تنفك منها قصيدتان أخريان بديعتان، إحداهما من المكتوب بالأحمر، والأخرى من المكتوب بالأخضر، وكل واحدة من هاتين البنتين تلد موشحة!

وقد بدأ هذه القصيدة بقوله:

أَمَا وَالْـهَوَى « مَا كُنْتُ » مُذْ بَانَ عَهْدُه

أَهِيـمُ بِلُقْيَـا مَـنْ (تَنَـاثَرَ) وُدُّهُ[1]

رَعَى اللَّهُ مَنْ «لَوْ أَنْصَفَ» الصَّبَّ فِي الْهَوَى

لَمَا فَاضَ مِنْـه (الدَّمْعُ) مُذْ بانَ صَـدُّهُ

وفيها يمدح السلطان ابن نصر فيقول:

---

(١) ما بين القوسين « » يكتب بالأحمر وما بين القوسين ( ) يكتب بالأخضر ومن كل منهما تتولد قصيدة!

فَصُغْ لُؤلُؤًا مِنْ (مَدْحِي ابْنَ) مُلُوكِنَا

إِمَامَ الْوَرَى « الْبَاهِي » عَلَى الْـخَلْقِ رِفْدُهُ

مَنْ أَورَثَـهُ الـمُلْكَ الْمُؤَمَّلَ (نَصْر) هـ

وَأَكْسَبَــه الْـمَجْدَ الْـمُؤَثَّــلَ سَعْــدُهُ

لُبَابُ الْعُلَى « قُطْبُ الْـمَعَانِـي و » تَاجُهَا

وَ(بَدْرُ الْـهَوَى الْـ) وَضَّاحُ فِي الدَّهْرِ سَعْدُهُ

بِهِ قَدْ غَدَا ثَغْـرُ « الْـهَوَى » وَهُوَ بَاسِمٌ

مُنِـيرٌ سَنَـاهُ (مُشْـرِق) الْأُفْـقِ سَعْـدُهُ

والقصيدة طويلـة تقارب المائة بيت وبعدها تأتـي قصيدة اللون الأخضر ومطلعها:

(تَنـاثَـر الـدَّمْـعُ) مِــنْ جُـفُـونِــي

(كَـالــدُّرِ) مِــنْ سِلْكِــه الثَّـمِــينِ

(مُـذْ أَعْـوَزَ الوَصْــلِ) وَالتَّـلَاقِــي

(مــنْ بَـدْر) حُـسْــن بِلَا قَــرِيـنِ

وفيها ألفاظ مكتوبةٌ باللون الأخضر تنظم منها موشحة، ثم قصيدة اللون الأحمر ومطلعها:

« مَا كُنْتُ لَـو أَنْصَفَ » بَعْدَ الـمِطَالِ

أَصْلَى لَظَـى الْوَجْدِ الْأَلِيـمِ « النَّكَالِ »

« كَـالْقَمَــرِ الزَّاهِـي » فِـي نُــورِهِ

« عَلَيْــهِ كَـاللَّيـلِ البَهِيـمِ » الـدَّلَالِ

وفيها يقول في ممدوحه:

« لسيفِه الْمُرْهَف » يَومَ الْوَغَى

« أَضْحَى الحمَامُ كَالحمِيمِ » الْموَالِي

« فَيُتْرَكُ الْكَافِرُ » رَهْنَ الْفَنَا

« وَقَدْ غَدَا مِثْلَ الْهَشِيمِ » الضَّلَال

أما بنت هذه القصيدة الخارجة منها من المكتوب بالأحمر فهي: موشحةٌ منها قوله:

لِسَيْفِهِ الْمُرْهَفُ

أَضْحَى الْحمَامُ كَالْحَمِيمِ

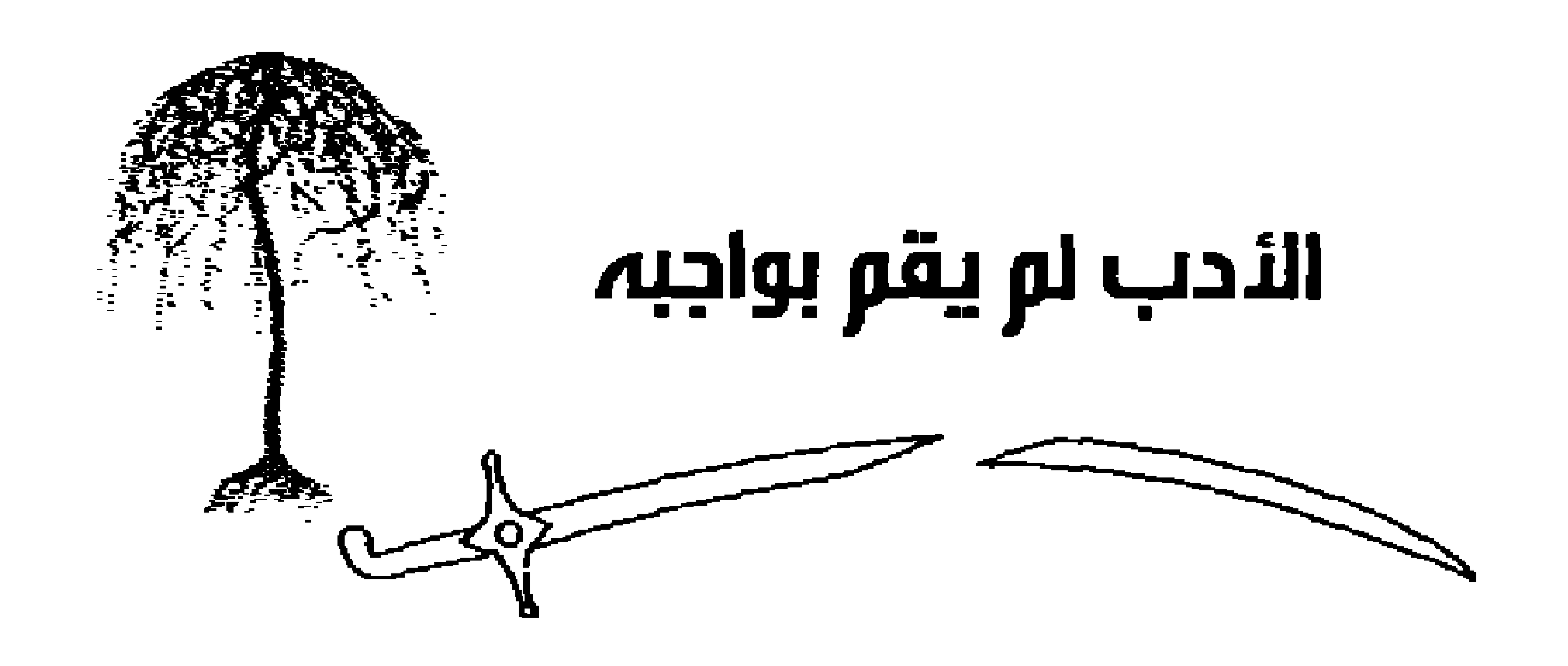
فَيُتْرَكُ الْكَافِرُ

وَقَدْ غَدَا مِثْلَ الْهَشِيمِ

فهل هذه وظيفة الأدب في تلك الفترة الحرجة الشديدة الخطر في حياة هذه الأمة! تكلُّفٌ بارد، وصنعة عقلية لقصيدة تَلِدُ قصيدتين، وكل منهما تلد موشحة؟!

فكم من الوقت أنفق هذا الشاعر المتكلف لكي يتم له المراد.. وإذا كان سيف بن نصر يترك الكافر رهن الفناء ويجعل الضلال هشيمًا تذروه الرياح فأين المشكلة إذن؟.. وكيف ضاعت الأندلس واستلبها الكافر بكمالها بعد عشرات من السنين من هذه القصيدة التي ولدت أربع قصائد؟!

* * *



الأدب لم يقم بواجبه

الحقُّ أنَّ الأدب في تلك الفترة لم يقم بواجبه، فاشتغل الشعراءُ والكتَّاب بالتصنُّع، وأثْقَلُوا أساليبهم بالزينة، والتزم أكثر الكتَّاب السجع الذي يَعُوق تدفق المعاني ويَشْغل السامع بشكله عن مضمونه.

وأشهر كتَّاب المرحلة الأخيرة في تاريخ الأندلس هو: لسان الدين بن الخطيب الذي أعجب الناس به في عصره وبعد عصره أيّما إعجاب، ولا شك أنه شاعر متفننٌ في ألفاظه، ومعانيه مستفيد من التراث الشعريِ قبله، مُحَاكٍ لأعلام الشعر حتى كأنه يجري معهم في بعض قصائده، وقد قال عنه المقري: « وأما شعره فهو في النهاية من الحسن » وهو متأثر بطريقة أبي تمام مكثر من الاقتباس والتضمين، لكنه في نثره يستعرض قدرته على التجنيس والسجع، ويُدِلُّ بسعة مفرداته وتمكنه من اللغة.. وقد كان هذا ملائمًا لو كان العصر عصر دعة وأمن وطمأنينة، أمّا والمسلمون كانوا حينئذ في جَهْد وبلاء فما كان يسوغ استخدام هذه الأساليب، ولا الجنوح إلى التهويل والمبالغة في معركة مواجهة: إما بقاء وإما فناء.

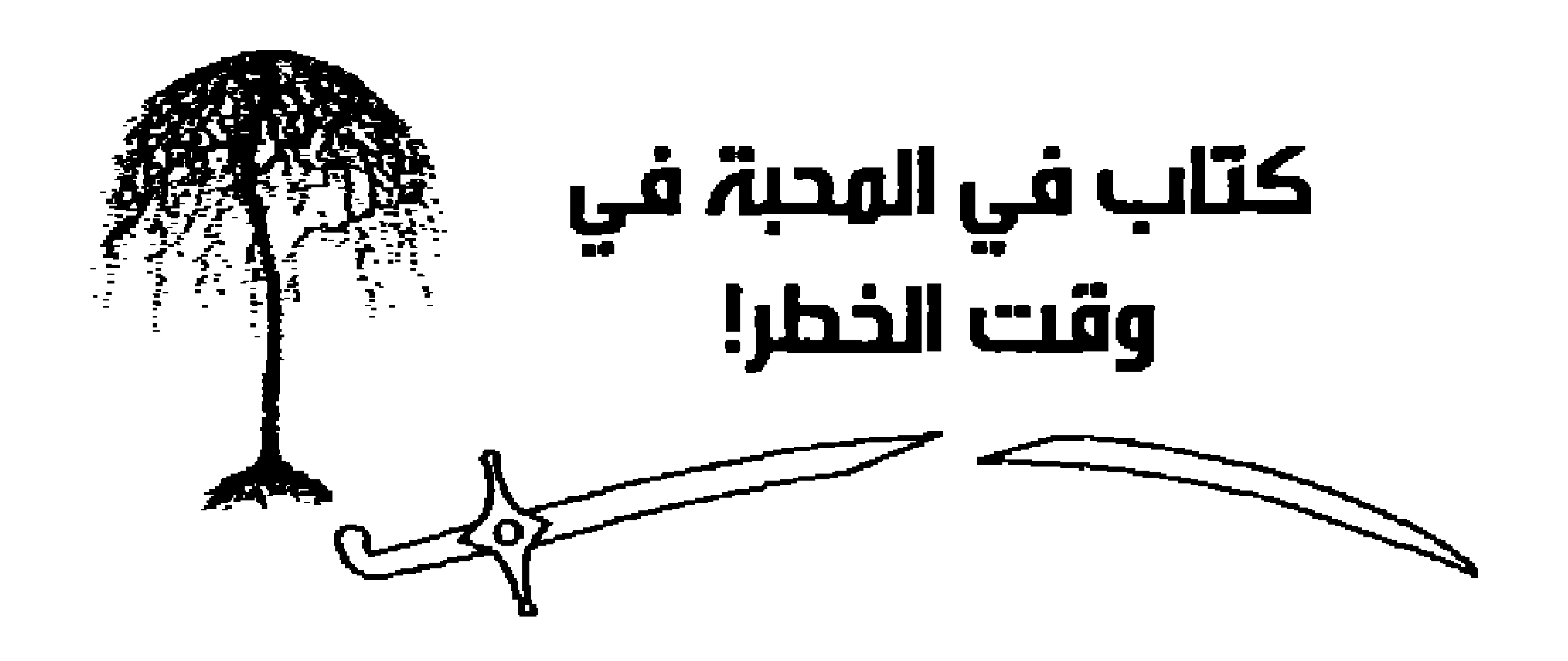
بل إنَّ ابن الخطيب كان يعبر عن هذا الخطر في بعض ما كتب؛

إذ قال في مقدمة كتابه (روضة التعريف بالحب الشريف): « في وطن توافر العدو على حَصْره، ودار به دَوْرَ السِّوَار على خصره، وملك قصر الصبر والتوكل على قصره، وعدد نسبته من العدد العظيم الطاقة الشديد الإطاقة نسبة الشعرة من جلد النَّاقة، وباللَّـه نستدفع المكروه، وإليه نمدُّ الأيدي، ونصرف الوجوه »[1].

* * *

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٢٨٢).



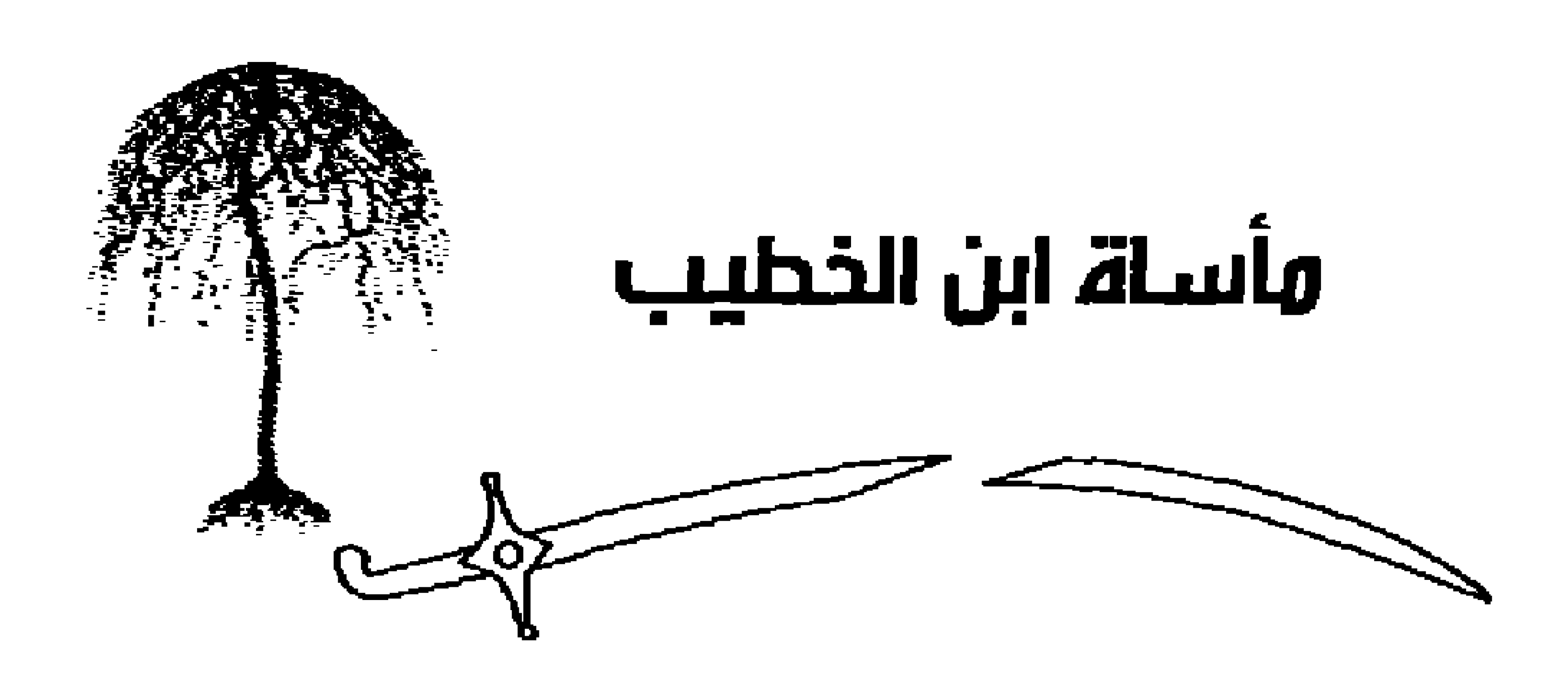
* ومع هذا الإحساس بالهول وجد ابن الخطيب سعةً من وقته؛ لإنفاذ مراد سلطانه بتأليف كتاب في المحبة، ينافس به كتاب ديوان الصبابة لابن أبي حجْلة الذي ورد إليهم من مصر، ويقول ابن الخطيب في مقدمة (روضة التعريف بالحب الشريف): « ولا آنفُ من ذكر الهوى بعد أن خُضْت غِمَاره واجتنيتُ ثماره، وأقمت مناسكه ورميت جِمَاره، وما أبرئ نفسي إنَّ النفس لأمارة، فالهوى أول تميمة قلَّدتْني الدايةُ، والتِّرْب التي عرفتها في البداية، وأنا الذي عَنْ عُرْوته[1] نُبْت، وبُعِثْتُ إلى الرَّصَافة لِأَرِقَّ فذُبْتُ! إلى أن تبين الرشد من الغي، وصار النَّشْر إلى الطيِّ، وتصايح ولدان الحيِّ: كذلك كنتم من قبْلُ فمنَّ اللّـه عليكم كما منَّ عليّ »[2].

* * *

---

(١) يشير إلى عروة بن حزام أحد العذريين المشتهرين.

(٢) نفح الطيب (٦/ ٢٨٢).



مأساة ابن الخطيب

والعجيب أن هذا الكتاب الذي أَلَّفه استجابةً لأمر سلطان الأندلس أبي عبد اللّـه اتُّخِذَ بعد ذلك وثيقةً لإدانته حين هرب من السلطان والتحق ببلاد المغرب، فسعى محمد بن الأحمر إلى تحريض سلطان المغرب عبد العزيز على القبض على لسان الدين بن الخطيب فلم يستجب له، حتى تغيَّر الحكم وولي السلطان أبو العباس، فاستجاب لرغبة ابن الأحمر وقبض على لسان الدين وحاكمه، وجاء له بمن يشهد على زندقته؛ استنادًا إلى بعض ما كتب في روضة التعريف، مما يوهم اعتقاده بالحلول والفناء ونحو ذلك من مقولات ابن عربي وأضرابه، ودسَّ إليه سلطانُ المغرب مَنْ خَنقه في سجنه، ثم أُحرق بعد موته، وكان في ذلك انتهاء محنته كما قال ابن خلدون!

وقد قال ابن الخطيب في سجنه هذا الذي قُتِل فيه:

فقُـلْ لِلْعِـدا ذَهَـبَ ابْـنُ الْـخَطِـيبِ

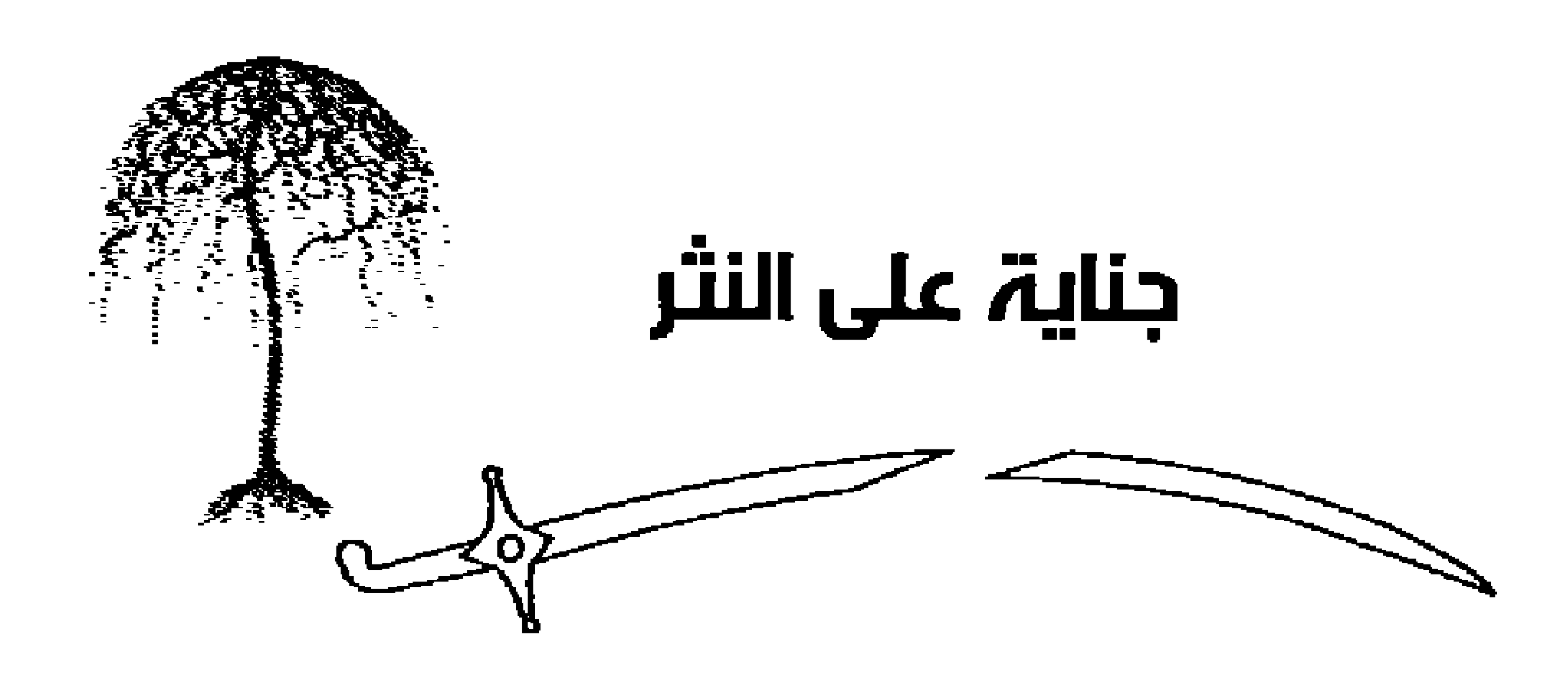
وَفَـاتَ ومَـنْ ذا الـذي لا يَفُـوتُ

وَمَـنْ كَـانَ يَفْـرَحُ مِنْـهُـم لَـه

فَقُـلْ يَفْـرَحُ الْيَـومَ مَـنْ لَا يَمُـوتُ!

ومأساة ابن الخطيب وأشباهها مما يعد انتهاكًا لحرية الإِنسان وحرماته وحقوقه هي إحدى أسباب مأساة الأندلس كذلك، فهي دالة على البشاعة والوحشية والاستئساد على الضعفاء، والعَجْز عن مواجهة الجبارين الأشداء.

***



جناية على النثر

لكنَّنا نقف عند جناية ابن الخطيب على النثر، وإثقاله له بالزينة والتلاعب به في كل غرض في وقت عصيب كهذا الوقت الذي شهد نسج خيوط المأساة!

وما ظنكم بكاتب يكتب على لسان سلطانه (الغني باللَّـه) رسالة يوجهها إلى رسول اللَّـه ﷺ يخبره فيها بفتوحات السلطان، ويهول فيها ما شاء له التَّهويل، مما لم يكن له صدًى في الواقع!

وفي صدر هذه الرسالة يقول على لسان مخدومه السلطان الغني باللَّـه محمد بن السلطان أبي الحجَّاج بن الأحمر: « من حمراء غرناطة حرسها اللَّـه تَعَالَى دار ملك الإسلام؛ بالأندلس، قاصية سَيْلك ومَسْحبة رَجِلك يا رسول اللَّـه وخَيْلك، وأنأى مطارح دعوتك ومساحب ذيلك، حيث مصافُّ الجهاد في سبيل اللَّـه وسبيلك قد ظلَّلتها القتامُ، وشهبان الأسنَّة أطلعها منه الإعتام، وأسواق بيع النفوس من اللَّـه تَعَالَى قد تعدَّد بها الأيامى والأيتام..، وحيث الإسلام من عدوه المكايد بمنزلة قطرة من عارض غمام، وحصاة من ثَبِير أو شَمام.

وقد سُدَّت الطريق، وأسلـم الفراق الفريق، وأغصَّ الريق،

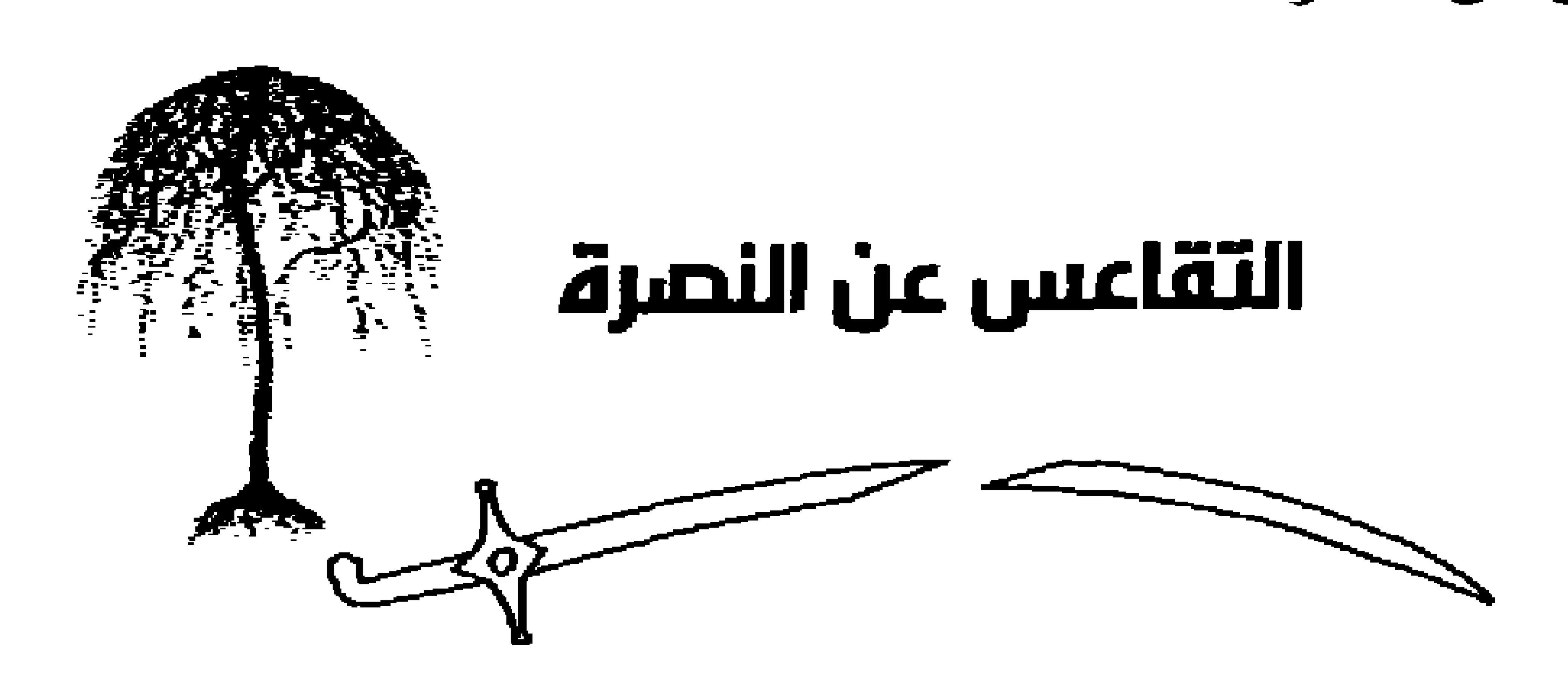
ويئس من الساحل الغريق! إلا أن الإسلام بهذه الجهة المستمسكة بحبل اللَّـه وحبلك، المهتدية بأدلة سبلك، سالم والحمد للَّـه من الانصداع، محروس بفضل اللَّـه من الابتداع، مقدود من جديد الـملَّة، معـدوم فيه وجـود الطوائـف الـمضلَّة، إلا ما يخصُّ الكفر من هذه العلَّة والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه بجمع القلة.. »[1].

فأيُّ بدعةٍ أشدُّ من هذه التي ابتدعها ابن الخطيب بتوجيهه هذا الخطاب إلى رسول اللَّـه ﷺ كأنه ملِك من ملوك عصره! يخبره بما أحرز سلطانه من انتصارات، كانت وهميةً في حقيقة الأمر، بدليل النتيجة التي آلت إليها..

ولكني أعجب من وصفه للمسلمين بأنهم جمع قلة في مواجهة جموع الكثير من عُبَّاد الصليب.. وما كان هذا ليكون لو لم يتقاعس المسلمون عن نصرة إخوانهم بالأندلس.

***

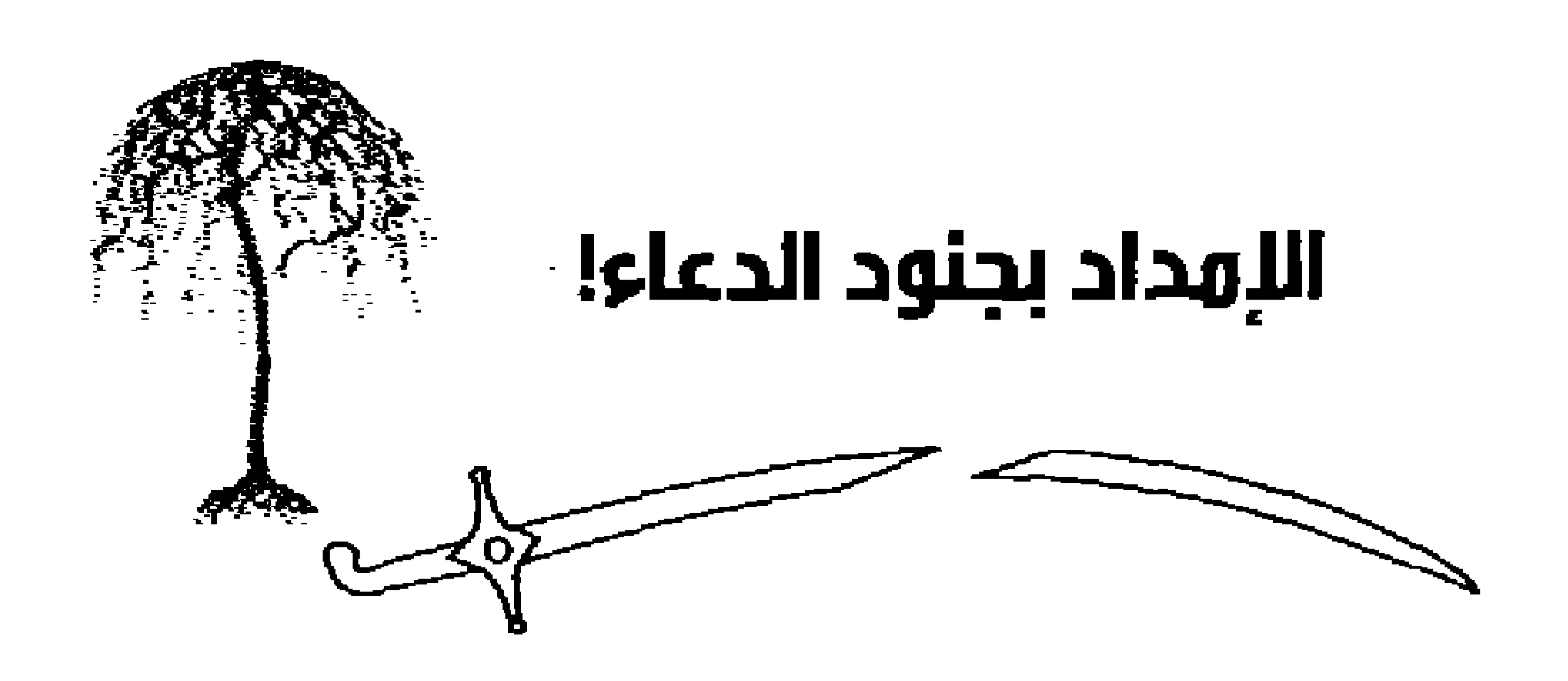
(١) نفح الطيب (٦/ ٣٦٥، ٣٦٦).



التقاعس عن النصرة

وهذا من أكبر أسباب تلك المأساة، وهو بحاجة إلى بحث تاريخيٍّ مفرد..، لكننا نجتزئ هنا بالإشارة إلى بعض النصوص المضحكة المبكية.

فقد كتب أبو الحسن المريني ملك المغرب، الذي كان يشتغل بنصرة المسلمين في الأندلس، إلى سلطان مصر سنة (٧٤٥هـ) الملك الصالح بن الملك الناصر محمد بن قلاوون يطلب منه مؤازرة المسلمين في الأندلس بالعَتَاد والرجال ويقول له في رسالته: « وذلك أنه لَمَّا وَصلنا من الأندلس الصريخ، ونادى منادٍ للجهاد عَزْمًا لمثل ندائه يُصيخ، أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب، وحتَّم عليهم (باباهم) اللعين التناصرَ من كل أَوْب، وأن تَقْصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها، وتَنْقُص بالمنازَلة أرضَها مِنْ أطرافها؛ ليمحوا كلمة الإسلام منها، ويقلِّصوا ظِلَّ الإيمان عنها، فقدَّمْنا من يشتغل بالأساطيل من القُوَّاد، وسرنا على إثْرهم إلى سِبْتَة منتهى المغرب الأقصى وباب الجهاد، فما وصلناها إلا وقد أخذ أَخْذَه العدوُّ الكَفُور، وسَدَّت أجفان الطواغيت على التعاون مجازَ العُبور، وأتوا من أجفانهم بما لا يُحْصَى عددًا، وأرصدوها بمجمع البحر حيث المجاز إلى دَفْع العِدَا ».



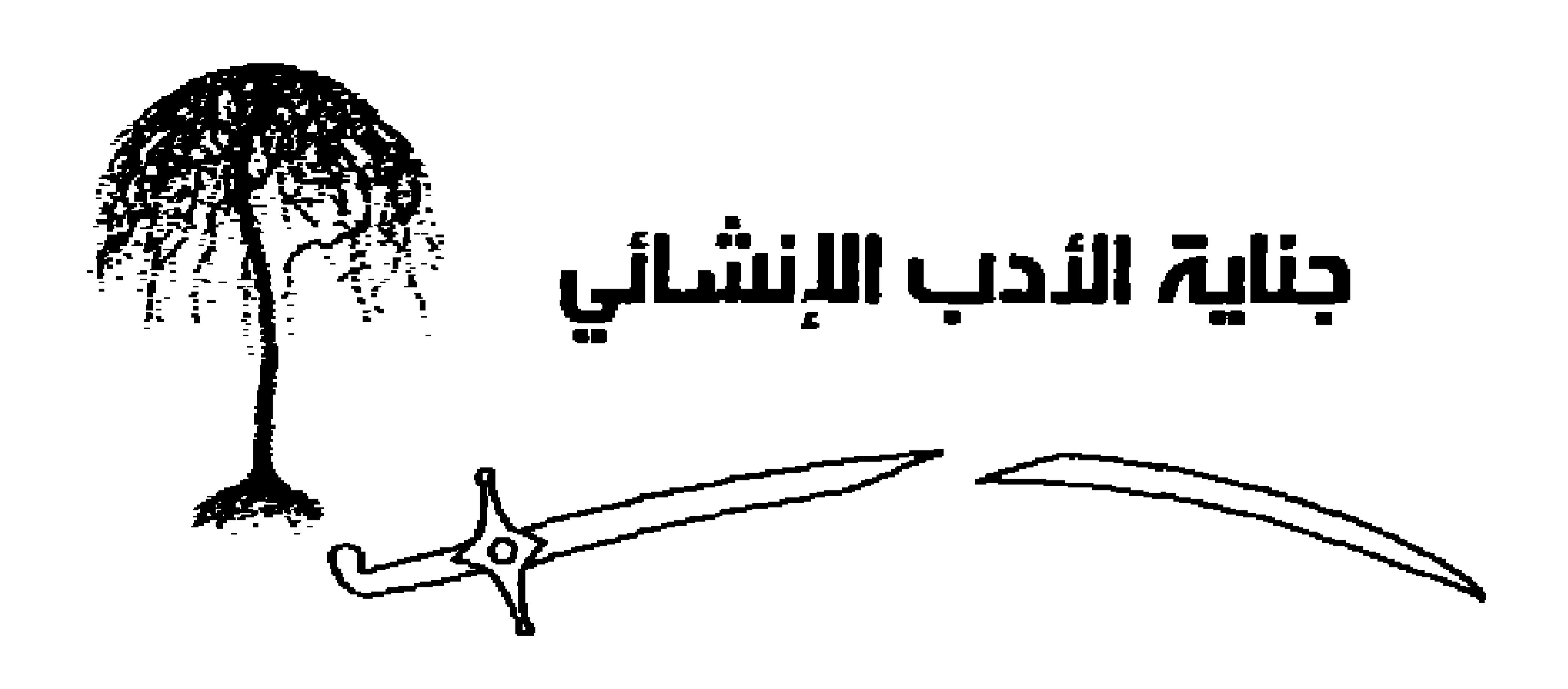
* فكيف كان جواب السلطان ابن قلاوون؟ لقد أنشأ الجواب (خليل الصفديُّ) شارح لامية العجم، وتأنّق ما شاء له التأنق في السجع والتجنيس، وبعد مقدمات طويلة يشير إلى أمر المسلمين في الأندلس وموقفه منه فيقول: « وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء، وما لاقاه أهلها، ومُنِي به من الكفَّار حَزْنُها وسَهْلها، فإنه شَقَّ علينا سماعه الذي أَنْكى أهلَ الإيمان، وعدَّد به ذنوبَ الزمان كلُّ قلب بأنامل الخَفَقان، وطالما فُزْتم بالظَّفَر، ورزقتم النصر على عدوكم فجَرَّ ذيلَ الهزيمة وفَرَّ، ولكنَّ الحروب سِجَالٌ، وكل زمان لدوائه دولة، ولرجائه رجال، ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عُقْبان الجياد المسوَّمة، وسالت على عدوِّكم أباطحهم بقسينا المُعْوَجَّة، وسهامنا المقَوَّمة، وكحَّلنا عيون النجوم بمَرَاود الرماح، وجعلنا ليل العَجَاج ممزَّقًا ببروق الصِّفاح، واتخذنا رؤوسهم لصوالج القوائم كُرَات، وفرَّجنا مضايق الحرب بتوالي الكَرَّات، وعطفنا عليهم الأعِنَّة، وخضنا جداول السيوف ودُسْنا شَوْكَ الأسنة، وفلَقْنا الصَّخَرات بالصَّرَخات، وأسَلْنا العَبَرات بالرَّعَبات، ولكن.. أين الغاية من هذا المدى

المتطاول؟ وأين الثُّريا من يد المتناول؟!

وما لنا غير إمدادكم بجنود الدُّعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا، والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا!! »[١].

* * *

(١) نفح الطيب (٦/ ٣٩٧).



جناية الأدب الإنشائي

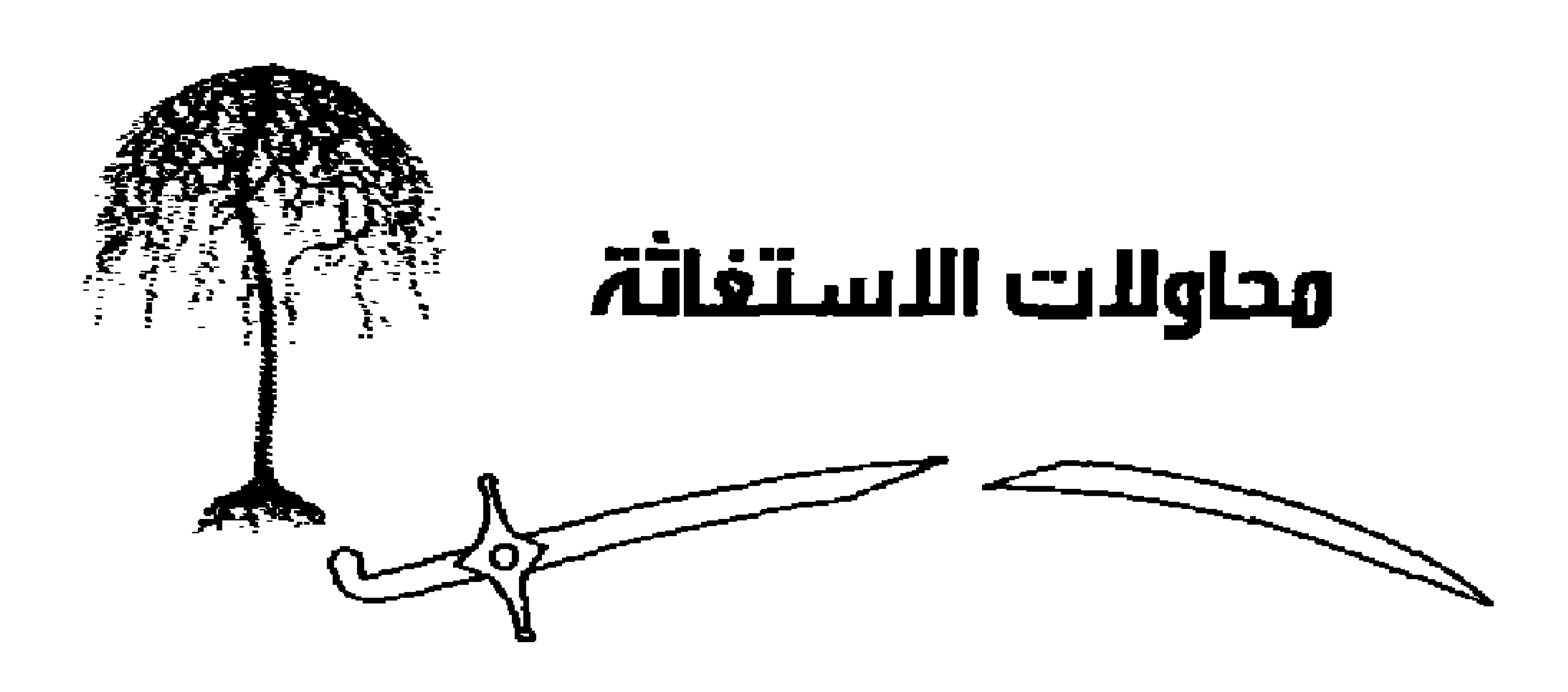
فهذه جناية الأدب الإِنشائي الذي يتيح الفرصة للتلاعب بالألفاظ والتعمية على تقصير المقصرين، وتخاذل المتخاذلين، وبخل القادرين.. فلو أمكنت المساعدة لصنع وصنع.. ما دام الأمر في جواب (لو) التي هي حرف امتناع لامتناع..

ولكن.. ويا لقسوتها.. أين السبيل إلى تحقيق هذا الأمل..؟!
فلم يبق إلا الإِمداد بجنود الدعاء..، وهي جنودٌ من الكلمات.. لا استجابةَ لها إلا مع البذل والجهد والجهاد..

إن المسلمين في يوم بدر لم يستغيثوا ربهم وهم في ديارهم قاعدون.. بل استغاثوه وهم بأطراف الأسنة ممسكون؛ ولهذا جاءت الاستجابة ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩].

أمَّا ابن قلاوون فقد أحسن اختيار كاتبه الصَّفدي؛ ليشغل المخاطب بتجنيسه بين الكَرَّات والكُرَات..، والصَّخَرات والصَّرَخات..، والعَبَرات والرَّعَبَات..، نحو ذلك من ألوان الصنعة البديعية، وكان ذلك قبل قرن ونصف من ضياع هذا الفردوس من أيدي أمَّة الإِسلام..

***



* ولا يتَّسع المجال هنا لاستعراض محاولات الاستغاثة التي وجَّهها الأندلسيون إلى إخوانهم في المَغْرب والمشرق وتسجيل مواقف المجاهدين والقاعدين، والمبادرين إلى إغاثة إخوانهم والمتشاغلين عنهم، فهذا موضوع يحتاج إلى تتبع تاريخي وتحليل لتلك المواقف..

لكنا نشير إلى ما كان يكتبه لسان الدين بن الخطيب من رسائل إلى المسلمين يحثهم فيها على إجابة داعي الجهاد.. وكأنه أداءُ واجبٍ وقيام بمهمة، فلم تكن تحرك في المسلمين ساكنًا، كقوله: « أيها الناس - رحمكم اللَّه - إخوانكم المسلمون قد دهم العدوُّ - قصمه اللَّه - ساحتهم ورام الكفر - قبَّحه اللَّه - استباحتهم، وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم، ومدَّ الصليب ذراعيه إليهم، وأيديكم بعزَّة اللَّه أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البرِّ والتَّقوى، وهو دينكم فانصروه، وجِوَاركم القريب فلا تَخْفِروه، وسبيل الرشد قد وضح فَلْتبصروه، الجهادَ الجهادَ، فقد تعيَّن، الجارَ الجارَ فقد قرر الشرع حقه وبيَّن، اللَّه اللَّه في الإسلام، اللَّه اللَّه في أمة محمد ﷺ، اللَّه اللَّه في المساجد المعمورة بذكر اللَّه، اللَّه اللَّه في وطن الجهاد في سبيل اللَّه، قد تأكد

عَهْد اللَّـه وحاشكم أن تَنْكُثوه، أعينوا إخوانكم بما أمْكَن من الإعانة، أعانكم اللَّـه على الشدائد، جَدِّدوا عوائدَ الخير يَصِل اللَّـه لكم جميلُ العوائد، صِلُوا رَحِم الكلمة، وآسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطَّوائف المُسْلِمة، كتاب اللَّـه بين أيديكم، وألسنة الآيات تناديكم، وسنة رسول اللَّـه ﷺ قائمة فيكم، واللَّـه يقول فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف: ١٠].. أدركوا رَمَق الدين قبل أن يَفُوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع اللَّـه يومَ يسألكم عن عباده، جاهدوا في اللَّـه بالألسن والأموال حق جهاده:

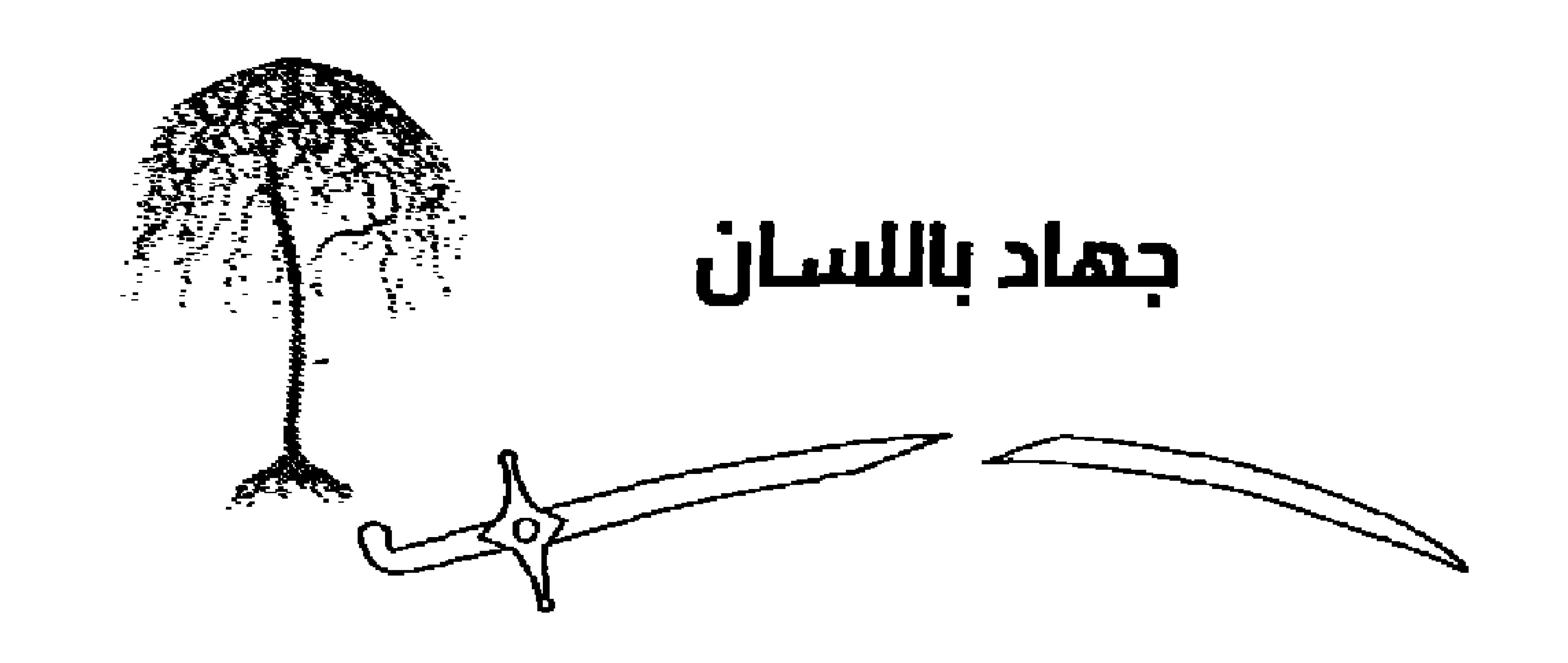
مَـاذَا يَكُـونُ جَـوَابُكُـمْ لِنَبِيِّكُـمْ
وَطَرِيـقُ هَـذَا الْعُـذْرِ غَيْرُ مُمَهَّـدِ
إِنْ قَـالَ لِـمَ فَرَّطْتُـمُ فِـي أُمَّتِـي
وَتَرَكْتُمُـوهم لِلْعَدُوِّ الْـمُعْـتَدِي؟![1]

وهو سؤالٌ حائرٌ.. ما زال يبحث عن جواب!!

وهكذا كان الأدب شعرًا ونثرًا يقوم بالواجب الرسمي، ويقول ما ينبغي أن يقال في كل مناسبة، لكنه لم يصِلْ إلى القلوب، ولم يحرك العزائم؛ لأنه كان مصنوعًا وكان غير صادق كذلك..

* * *

(١) أزهار الرياض (١/ ٦٤، ٦٥).



جهاد باللسان

فهل كان لسان الدين بن الخطيب الداعي إلى الجهاد نظمًا ونثرًا مجاهدًا..، وهل كان للصفوف متقدِّمًا..، أم أنه كان مشغولًا بضياعه ودُوره وكنوزه، مما كشفت عنه الرسالة التي كتبها إليه القاضي أبو الحسن النباهي، الذي طالما هجاه ابن الخطيب فأقذع في هجائه.. حتى لقد ذكر أبو الوليد بن الأحمر في كتاب نثير فرائد الجمان نحوًا من عشر شواهد في هجائه[1].

ويقول أبو الوليد عن لسان الدين بن الخطيب: « شاعر الدنيا وكاتب الأرض إلى يوم العَرْض، لكنَّ صِلَّ[2] لسانه في الهجاء لَسع، ونِجَاد نطاقه في ذلك اتسع ».

لقد كان ابن الخطيب يصف مشاهد سلطانه الغنيِّ باللَّه المزعومة ومواقعه مع الكفار وصفًا حماسيًّا بليغًا..، فلما فرَّ من هذا السلطان انقلب المدح إلى ذمٍّ..، والجهاد إلى استخذاءٍ.. وكشف الناس حقيقة هذه المواقف.. فلذلك نقَم الغنيُّ باللَّه عليه وأصرَّ على إزهاق نفسه..

---

(١) نثير فرائد الجمان لابن الأحمر، تحقيق د. رضوان الداية (ص ٥٨) وما بعدها.

(٢) الصلة: الحية الدقيقة الصغر.

فمن قوله حين كان يكتب عن تلك الانتصارات رسالةٌ كتبها على لسان السلطان الغني باللَّـه ملك غرناطة إلى المستنصر باللَّـه ملك إفريقية سنة (٧٧٠هـ) يقول فيها: « وعُدْنا والأرض تموج سَبْيًا، لم نترك بعفرين شِبْلًا، ولا بَوْجرة ظَبْيًا، والعقائل حَسْرى، والعيون يبهرها الصَّنْع الأسْرَى[1]، وصُبْح السُّرَى قد حُمِد من بعد المَسْرَى، فسبحان الذي أُسْرى، ولسان الحميَّة ينادي في تلك الكنائس المخزية والوادي يا لَثارات الأسْرى! »[2].

ثم يقول: « وناديْنا الجهاد يا أمة الجهاد، راية النبيِّ الـهاد، الجنة تحت ظلال السيوف الحِدَاد، فهزَّ النداء إلى اللَّـه كلَّ عامرٍ وغامرٍ، وائتمر الـجَمُّ من دعوة الحق إلى أَمْرِ آمر، وأتى الناس من الفُجوج العميقة ﴿ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [الحج: ٢٧]، وكاثرت الرايات أزهار البِطَاح لونًا وعَدًّا، وسدت الحشود مسالك الطرق العريضة سدًّا، ومدَّ بحرها الزاخر، واللَّـه مكثِّر القليل - مَدًّا، فلا يجد له الناظر ولا المُناظر حَدًّا ».

ثم يقول في محاولتهم استرداد قرطبة من أيدي النصارى وفشل تلك المحاولة: « ثم تأهَّبنا لغزو أم القرى الكافرة، وخزائن المدائن الوافرة، وربة الشهرة السافرة، قرطبة وما أدراك ما هيه، ذات الأرجاء الحالية الكاسية، والأطواد الراسخة الراسية، والمباني المباهية، والزهراء الزاهية، والمحاسن غير المتناهية.. والوطن الذي ليس مِنْ عمرو ولا زيد، والفَرا الذي

(١) الأسرى: الأرفع.

(٢) نثير فرائد الجمان (ص ٩٤).

فِي جوفه كل صَيْد، أقل كرسيه خلافة الإِسلام، وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام، أو تعبر عن ذلك الكمال فنون الكلام، فلولا عائق المطر لحصلنا من فتح ذلك الوطن على وَطَر! »[1].

***

(١) نثير فرائد الجمان (ص ١٠٠).

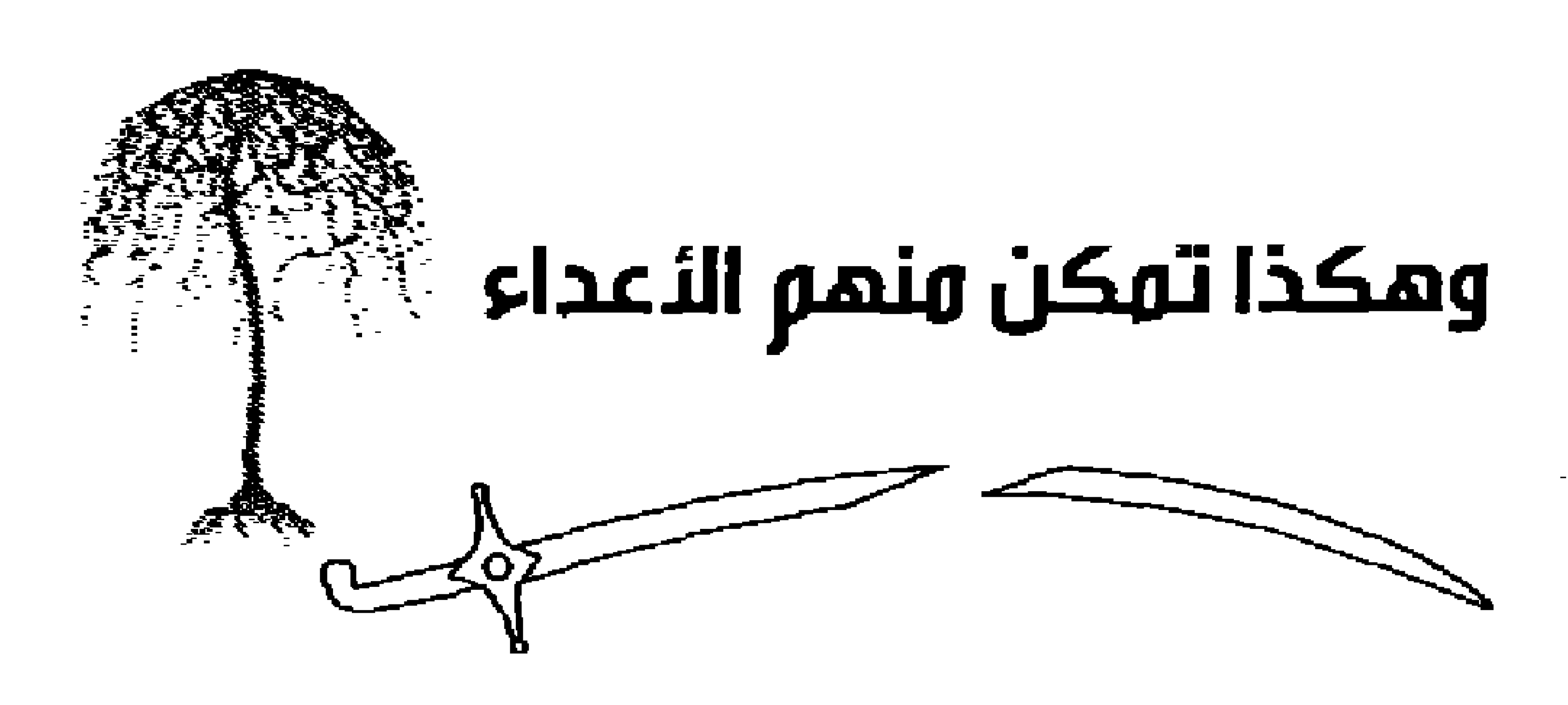


مسؤولية الأدب عن النكبة!

* بل هذه فنون الكلام التي أوبقت المسلمين في هذا المأزق الخطير، فهل هذا أدب جهاد..؟! وهل هذا أسلوب يعبر عن هذا الصراع المحتدم ويدعو إلى حسمه لمصلحة الإسلام والمسلمين؟!

إنَّني أعتبر الأدبَ في تلك الفترة مسؤولًا عن النكبة التي حاقت بالمسلمين، كما أنه تعبير عن واقعهم في ذلك الزمان.. مِنْ بلادة الشعور وخمود العاطفة، وفتور العزيمة، وقعود الهِمَّة..، فكيف يشتغل بوصف الرايات ويشبهها بأزهار البطاح في كثرتها وتنوع ألوانها..، وكيف يشتغل بوصف قرطبة - وهي مدينة كانت قاعدة الحضارة الإسلامية في تلك الديار - فليس هناك من حاجة إلى الاشتغال بوصفها، وحين يأتي إلى الغرض المهم يعتذر عن تعذُّر الفتح بسبب هطول الأمطار؟!

* * *



وهكذا تمكن منهم الأعداء

* إنه عذر لا يَسُوغ عند من يعرفون فنون الحرب ويملكون إرادة القتال..

لقد استغلَّ النَّصارى اشتغال المسلمين بهذه الزخارف في أدبهم وفي حياتهم، فأوقعوا بهم وأشعلوا الفتنة بديارهم.. بعد أن خبا نور العلم الحق في بلاد الأندلس، وبعد أن شاعت الأوهام والخرافات، واشتغل الناس بما لا يجدي من فنون الكلام..، بل لقد استطاع النَّصارى إيهام بعض المسلمين في تلك الدِّيار أنهم يريدون الخير لهم، وأنهم يحمونهم من الظلم والاضطهاد من إخوانهم في الدين..

كما يدل على ذلك قول ابن عاصم في كتابه (جَنَّة الرضا):
« من استقرأ التواريخَ المنصوصة وأخبار الملوك المقصوصة، علم أن النَّصارى - دمَّرهم اللَّه - لم يدركوا في المسلمين ثارًا ولم يَرْحضوا عن أنفسهم عارًا، ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارًا، ولم يستولوا عليها بلادًا جامعة وأمصارًا، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة، وتحريشهم بالكيد والخِلَابة بين حماتها في الفتن المبيرة، ومهما

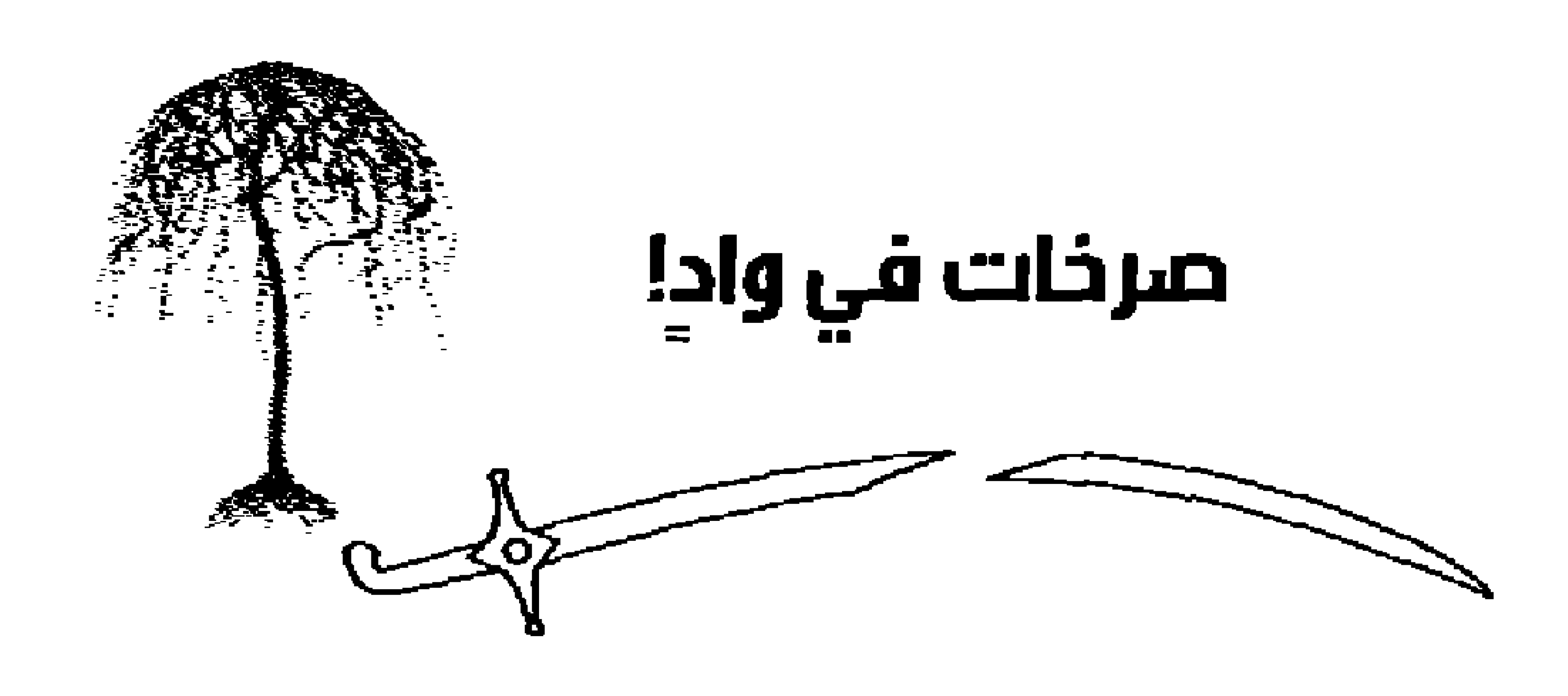
كانت الكلمةُ مؤتلفةً، والأهـواء لا مفترقة ولا مـختلفة، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى اللّـه مزدلفةٌ، فالحرب إذ ذاك سِجَالٌ، وللّـه في إقامة الجهاد في سبيله رجال، وللممانعة في غرض المدافعة ميدان رَحْب ومجال، ورويَّةٌ وارتجال ».

ثم قال: « وتطاولت الأيام ما بين مهادنة ومقاطعة، ومضاربة ومقارعة، ومنازلة ومنازعة، وموافقة وممانعة، ومحاربة وموادعة، ولا أمل للطّاغية إلا في التمرُّس بالإسلام والمسلمين، وإعمـال الحيلة على المؤمنين، وإضمـار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين، وهو يظهر أنه ساعٍ للوطن في العاقبة الحسنى، وأنه منطوٍ لأهله علـى المقصد الأسنى، وأنه مهتمٌ بمراعاة أمورهم، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم، فتبًّا لعقول تقبل مثل هذا المحال وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال »[1].

لكن ما صنعه بهم الطاغيةُ.. لم يكن بأكثر مما صنعوه بأنفسهم من تبديل الأحوال، والركون إلى المحال، والاشتغال بالتنازع والجدل.. إضافةً إلى القلة في الأبطال والرجال، والاكتفاء بالمقال عن الفعال.. فكان ما لا بد أن يكون..

* * *

(١) أزهار الرياض (١/ ٥٠، ٥١).



* ولم يسمع المسلمون صرخات من وقعوا في رقِّ النَّصارى من إخوانهم المسلمين في الأندلس..، وتذكّر بعض المقهورين في الأندلس أن هناك سلطانًا قويًّا منيع الجيوش في القسطنطينية اسمه (بايزيد) أو (أبو يزيد) كما كانوا يسمونه، فانتدبوا منهم شاعرًا وجه رسالةً إلى السلطان.. لكنها كانت مضحكةً مبكيةً في آنٍ.. يقول الشاعر المجهول:

سَلَامٌ كَرِيمٌ دَائِمٌ مُتَجَدِّدٌ
أَخُصُّ بِهِ مَولَايَ خَيرَ خَلِيفَةِ
سَلَامٌ عَلَى مَولَايَ ذِي المَجْدِ وَالْعُلَا
وَمَنْ أَلْبَسَ الْكُفَّارَ ثَوْبَ المَذَلَّةِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ وَسَّعَ اللَّه مُلْكَه
وأَيَّدَهُ بالنَّصْرِ فِي كُلِّ وِجْهَةِ
سَلَامٌ عَلَى مَوْلَاي مَنْ دارُ مُلْكه
قُسَنْطِينَةٌ أَكْرِمْ بِهَا مِنْ مَدِينَةِ

ويمضي الشاعر في سلامه على السلطان في أبيات عدة يمدحه فيها بصفات البطولة والشجاعة والإقدام وحماية الدين..

لعلَّ ذلك المديح يحركه لنصرة هؤلاء المستضعفين..

بل لا ينسى هذا الشاعر الناظم المعبِّر عن إخوانه المقهورين بالأندلس أن يسلِّم أيضًا على القاضي والعلماء والمستشارين في بلاد السلطان فيقول:

سَـلَامٌ عَلَى الْقَاضِـي وَمَـنْ كَانَ مِثْلَـه
مِـنَ الْعُلَمَـاءِ الْأَكْرَمِـينَ الْأَجِلَّـةِ

سَـلَامٌ عَلَـى أَهْـلِ الدِّيَانَـةِ وَالتُّقَـى
وَمَنْ كَانَ ذَا رَأْيٍ مِـنْ أَهْـلِ الْمَشُـورَةِ

سَـلَامٌ عَلَيكُـمْ مِـنْ عَـبِيدٍ تَخَلَّفُـوا
بِأَنْدَلُـسِ الْغَـرْبِ فِـي أَرْضِ غُرْبَـةِ

أَحَـاطَ بِهِـمْ بَحْـرٌ مِـنَ الـرُّومِ زَاخِـرٌ
وَبَحْـرٌ عَمِيـقٌ ذُو ظَـلَامٍ وَلُـجَّـةِ

وبعد أن يصف الشاعر المحزون ما أصاب قومه من نتف لحى الشيوخ، وكشف وجوه الحرائر على الكفار بعد ستر، وانتهاك أعراض الفتيات، وإكراه العجائز على أكل لحوم الخنزير والجيف يقول:

شَكَونَـا لَكُـمْ مَولَايَ مَا قَـدْ أَصَابَنَـا
مِـنَ الضُّـرِّ وَالْبَلْـوى وَعُظْـمِ الرَّزِيَّـةِ

غُـدِرْنَـا ونُصِّـرْنَـا وَبُـدِّلَ دِينُنَـا
ظُلِمْنَـا وَعُـومِلْنَـا بِـكُـلِّ قَبِيحَـةِ

وَكُنَّا عَلَى دِينِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
نُقَاتِلُ عُمَّالَ الصَّلِيبِ بِنِيَّةِ
وَنَلْقَى أُمُورًا فِي الجِهَادِ عَظِيمَةً
بِقَتْلٍ وَأَسْرٍ ثُمَّ جُوعٍ وَقِلَّةِ
فَجَاءَتْ عَلَيْنَا الرُّومُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
بِسَيْلٍ عَظِيمٍ حَمْلَةً بَعْدَ حَمْلَةِ
وَفُرْسَانُهُمْ تَزْدَادُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
وَفُرْسَانُنَا فِي حَالِ نَقْصٍ وَقِلَّةِ

وهكذا يكشف لنا هذا الشاعر المجهول سرَّ النَّكبة التي أصابت المسلمين في أرض الأندلس..، فكيف تم هذا التحول في ميزان القوى؟..، ولماذا كان فرسان الرُّوم يزدادون ساعةً بعد ساعةٍ وفرسان المسلمين يَنْقُصون ويقِلُّون؟!

إنَّها قصةُ هذه المأساة التي استغرقت قُرونًا.. يحكيها هذا الشاعر المجهول الناطق بلسان قومه في أبياتٍ معدودةٍ.. يقول:

فَلَمَّا ضَعُفْنَا خَيَّمُوا فِي بِلَادِنَا
وَمَالُوا عَلَيْنَا بَلْدَةً بَعْدَ بَلْدَةِ
وَجَاءُوا بِأَنْفَاطٍ عِظَامٍ كَثِيرَةٍ
تُهَدِّمُ أَسْوَارَ الْبِلَادِ الْمَنِيعَةِ
وَشَدُّوا عَلَيْهَا فِي الْحِصَارِ بِقُوَّةٍ
شُهُورًا وَأَيَّامًا بِجِدٍّ وَعَزْمَةِ

فَلَمَّــا تَفَــانَــتْ خَيْلُنَــا وَرِجَــالُنَــــا

وَلـم نَـرَ مِـنْ إِخْوَانِنَــا مِـنْ إِغَاثَـــةِ

هنا نرهف السمع..؛ لنسمع جواب لَمَّا. لكننا لا نستطيع تجاوز هذه الجملة المفجعة: « ولم نر من إخواننا من إغاثة! » فهي ليست أداة جزم نافية لوقوع الفعل في الماضي فحسب.. لكنها وَصْمة عار لأجيال من المسلمين قعدوا عن نصرة إخوانهم الذين شَبَّتْ في بلادهم نيران الحقد وتكالبت عليهم قوى الشر والظلام.. فماذا كان بعد؟ لقد كان الاستسلام للصليبيين بشروط خادعة وعهود أكَّدها هؤلاء الدهاة المخادعون واغترَّ بها المسلمون:

وَخَـوفًــا عَلَـــى أَبْنَـائِنَــا وَبَنَـاتِنَــــا

مِـنَ انْ يُؤْسَـرُوا أَو يُقْتَلُـوا شَرَّ قِتْلَـةِ

وَنُبْقِـي عَـلَــى أَذَانِنَــا وَصَـلَاتِنَــــا

وَلَا نَتْرُكَـنْ شَيئًـا مِـنَ امْرِ الشَّرِيعَــةِ

إِلَـى غَـيرِ ذَاكَ مِـنْ شُــرُوطٍ كَثِـيرَةٍ

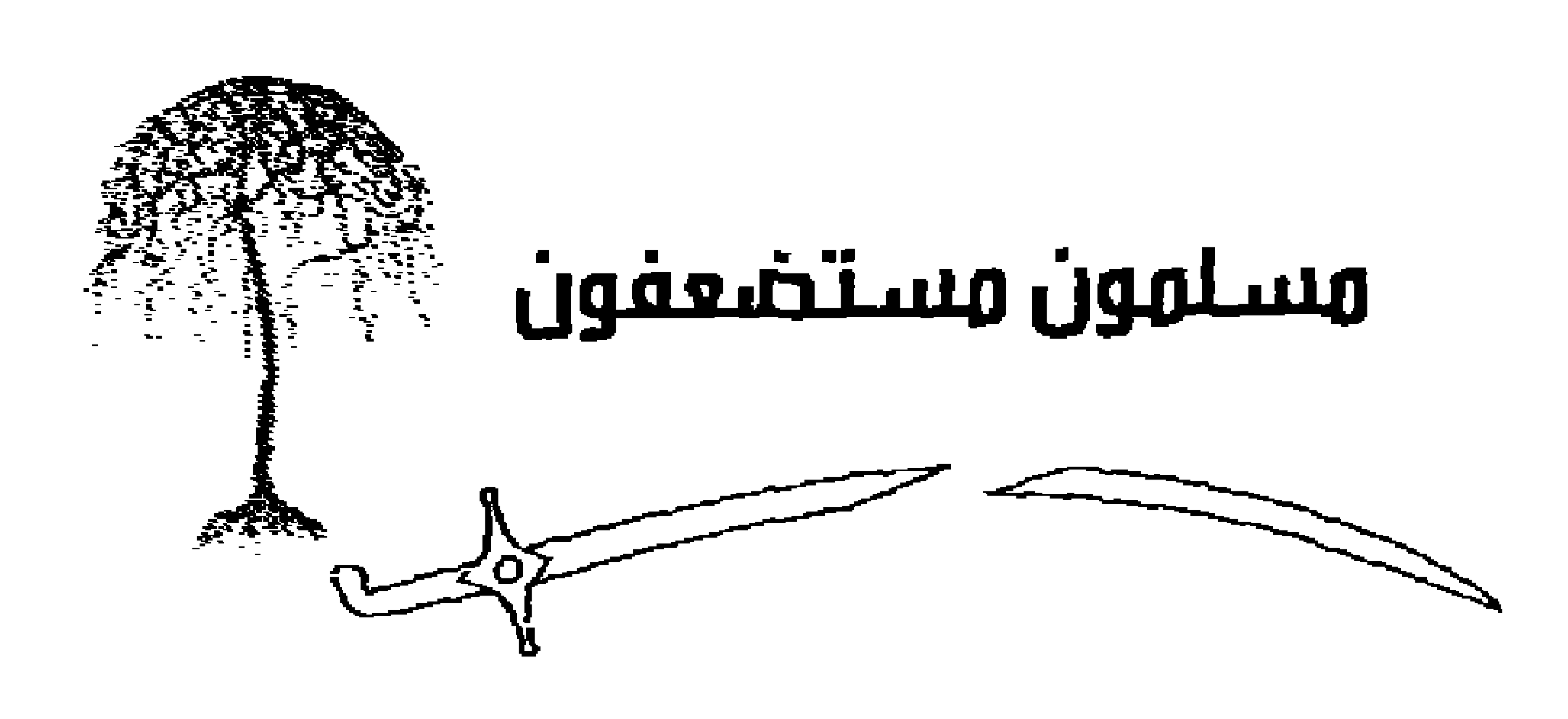
تَزِيدُ عَلَـى الخَمْسِـينَ شَرْطًـا بِخَمْسَةِ

فَقَــالَ لَنَــا سُلْطَانُـهُـمْ وَكَبِـيرُهُــمْ

لَكُـمْ مَـا شَـرَطْتُـمْ كَامِـلًا بِالزِّيَــادَةِ

وَأَبْـدَى لَنَــا كُتْبًــا بِعَهْـدٍ وَمَوْثِــقٍ

وَقَـالَ لَنَـا هَــذَا أَمَـانِـي وَذِمَّتِــي!



واعجبًا! لقد أصبح المسلمون في (ذِمَّة النَّصارى) بعد أن كان النَّصارى في ذمَّة المسلمين ولكن شتان بين ذمة وذمة وعهد وعهد.. فبينما وفَّى المسلمون بذمَّتهم، وصانوا حقوق من دخل في دينهم نرى هؤلاء الحاقدين يسرعون إلى الغدر، وينكثون بالعهود، ويخلون بالشروط.. كما يحكي هذا الشاعر المجهول:

فَلَمَّا دَخَلْنَا تَحْتَ عَقْدِ ذِمَامِهِمْ
بَدَا غَدْرُهُمْ فِينَا بِنَقْضِ الْعَزِيمَةِ
وَخَانَ عُهُودًا كَانَ قَدْ غَرَّنَا بِهَا
وَنَصَّرَنَا كُرْهًا بِعُنْفٍ وَسَطْوَةِ
وَأَحْرَقَ مَا كَانَتْ لَنَا مِنْ مَصَاحِفَ
وَخَلَّطَهَا بِالزِّبْلِ أَوْ بِالنَّجَاسَةِ
وَلَمْ يَتْرُكُوا فِيهَا كِتَابًا لِمُسْلِمٍ
وَلَا مُصْحَفًا يُخْلَى بِهِ لِلْقِرَاءَةِ!

تمامًا كما يفعل الصهاينة بأرض فلسطين في هذه الأيام!

فما أبشع التعصُّب والهوس الصليبي تجاه الإسلام الذي عبَّر عنه هذا الشاعر المجهول حين قال:

وَمَـنْ صَـامَ أَو صَلَّـى وَيُعْلَـمُ حَالُـهُ

فَفِـي النَّـارِ يُلْقُـوهُ عَلَـى كُـلِّ حَالَـةِ

وَفِـي رَمَضَـانَ يُـفْسِـدُونَ صِيَـامَنَـا

بِأَكْـلٍ وَشُـرْبٍ مَـرَّةً بَـعْـدَ مَـرَّةِ

حتَّى الأسماء الإسلامية التي كان يحملها هؤلاء المستضعفون، ضاق بها الطُّغاة الجبارون وأكرهوهم على تبديلها:

وَقَـدْ بُدِّلَـتْ أَسْمَـاؤنَـا وَتَـحَوَّلَـتْ

بِغَـيـرِ رِضًـا مِـنَّـا وَغَـيـرِ إِرَادَةِ

فَآهًـا عَلَـى تَبْدِيـلِ دِيـنِ مُـحَمَّـدٍ

بِـدِيـنِ كِـلَابِ الـرُّومِ شَـرِّ الْبَرِيَّـةِ

وَآهًـا عَلَـى أَسْمَـائِنَـا حِـينَ بُدِّلَـتْ

بِأَسْمَـاءِ أَعْـلَاجٍ مِـنْ أَهْـلِ الْغَبَـاوَةِ

وَآهًـا عَـلَـى أَبْـنَائِـنَـا وَبَـنَاتِـنَـا

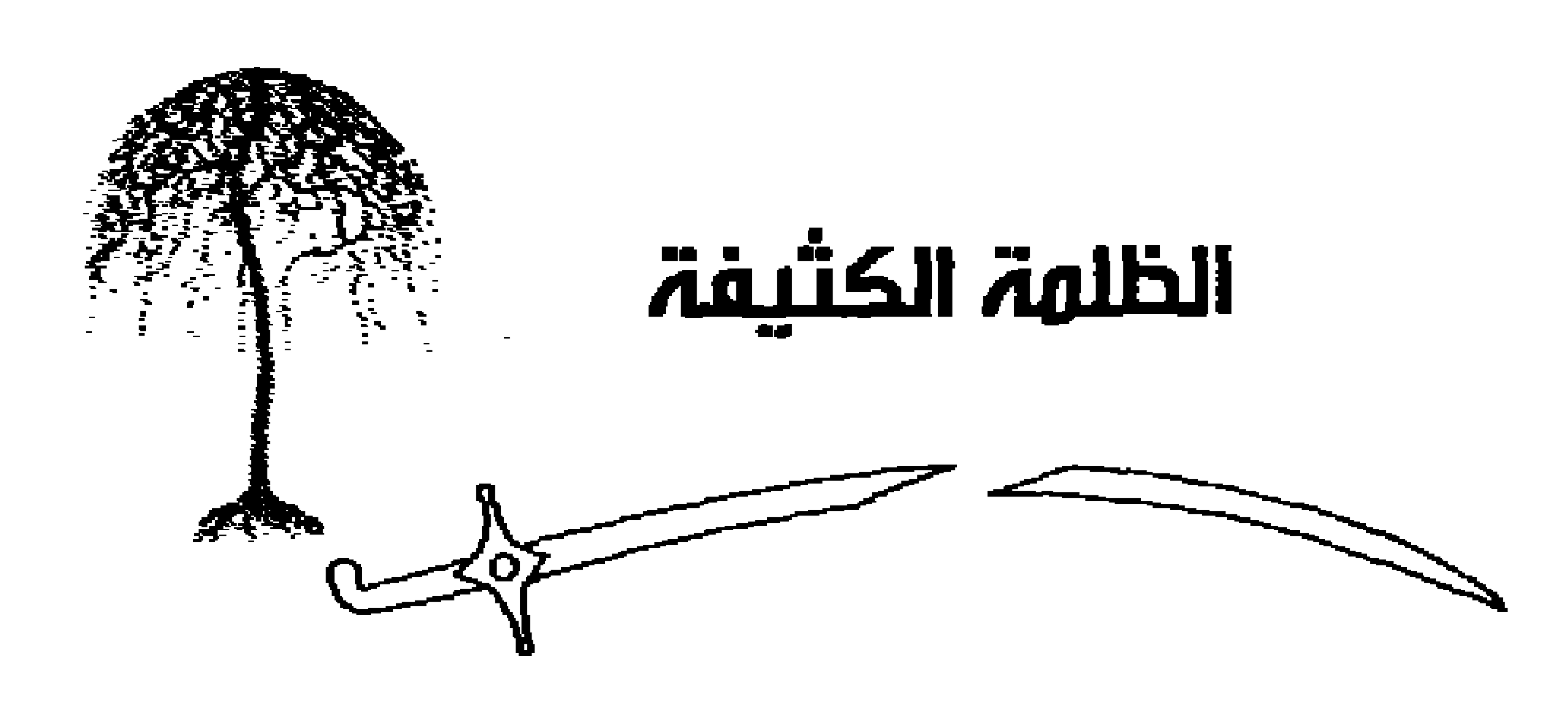
يَرُوحُـونَ لِلْبَـاطِ فِـي كُلِّ غَـدْوَةِ[1]

يُـعَلِّمُهُـمْ كُـفْـرًا وَزُورًا وَفِـرْيَـةً

وَلَـمْ يَقْـدِرُوا أَنْ يَمْنَعُوهُـمْ بِحِيلَـةِ

* * *

(١) اللباط: من رجال الدين بالكنيسة. كما في معجم (دوزي).



الظلمة الكثيفة

لقد غشيت الظلمةُ الكثيفة بلادَ الأندلس بعد سقوط آخر معاقل الإسلام فيها وجاس خلالها متعصبون مهووسون يحرقون ويدمرون ويطمسون معالم الجمال والإشراق التي خلَّفها المسلمون وراءهم في ذلك الفردوس المفقود!

وقد شهد بذلك عامة المؤرخين الغربيين.. وصدَّقوا قول هذا الشاعر المقهور:

وَآهًا عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَحُسْنِهَا
لَقَدْ أَظْلَمَتْ بِالْكُفْرِ أَعْظَمَ ظُلْمَةِ
وَصَارَتْ لِعُبَّادِ الصَّلِيبِ مَعَاقِلًا
وَقَدْ أَمِنُوا فِيهَا وقُوعَ الْإِغَارةِ
وَصِرْنَا عَبِيدًا لَا أُسَارَى فنُفْتَدَى
وَلَا مُسْلِمِينَ نُطْقُهُمْ بِالشَّهَادَةِ
فَلَو أَبْصَرَتْ عَينَاكَ مَا صَارَ حَالُنَا
إِلَيهِ لجَادَتْ بِالدُّمُوعِ الْغَزِيرةِ
فَيَا وَيلَنَا.. يَا بُؤسَ مَا قَدْ أَصَابَنَا
مِنَ الضُّرِّ وَالْبَلْوى وَثَوْبِ المَذَلَّةِ

وبعد فيض الدموع الغزيرة.. ماذا يريد هذا الشاعر من السلطان (بايزيد): إنه لا يريد منه إلا الوساطة لدى الروم..؛ ليرفعوا عنهم سوطَ العذاب..، وليسمحوا لهم بحرِّية الاعتقاد والعبادة.. أو يتركوهم يفرُّون بدينهم إلى الجهة الأخرى.. إلى بلاد المغرب؛ ليعيشوا لاجئين:

عَسَى تَنْظُرُوا فِينَا وَفِيمَا أَصَابَنَا

لَعَلَّ إِلَهَ الْعَرْشِ يَأْتِي بِرَحْمَةِ

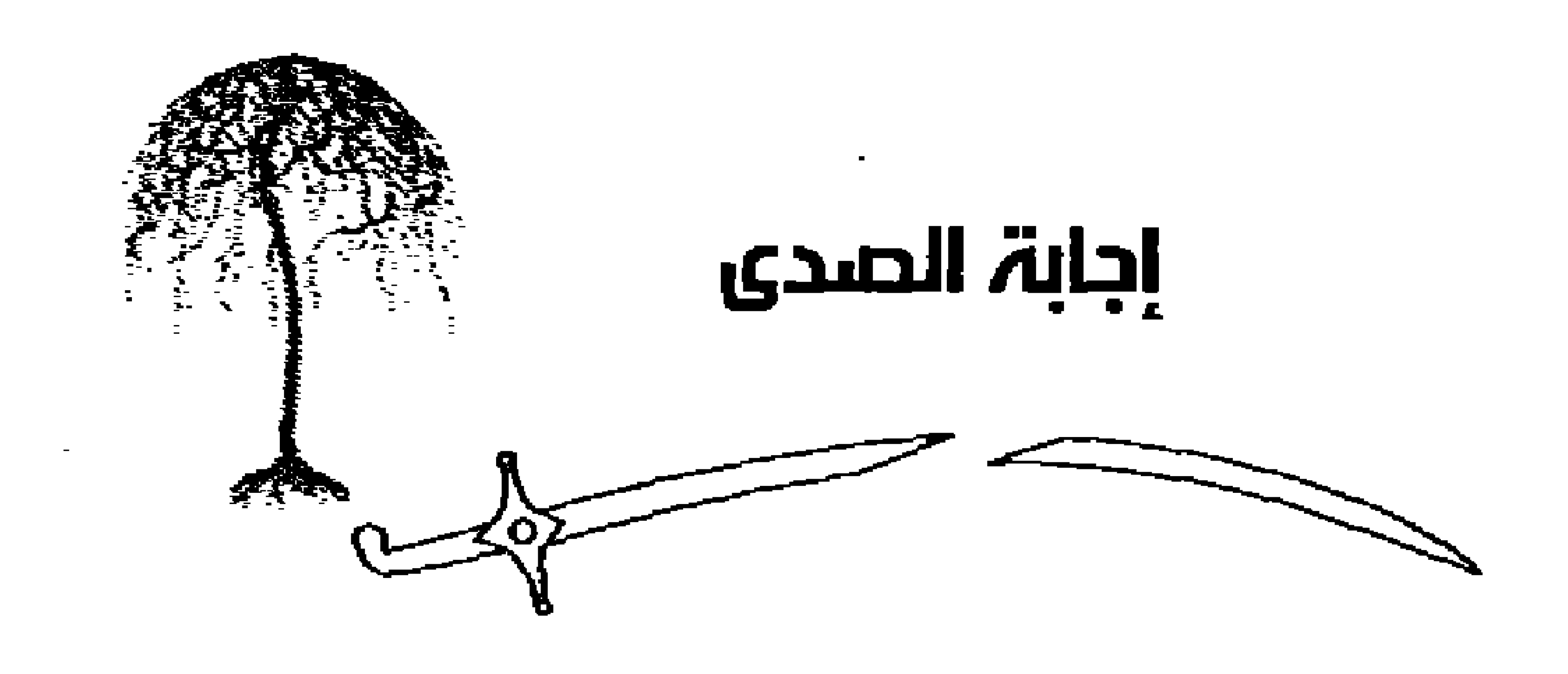
وَدِينُ النَّصَارَى أَصْلُهُ تَحْتَ حُكْمِكُمْ

وَمِنْ ثَمَّ يَأْتِيهِمْ إِلَى كُلِّ كُورةِ

فَبِاللَّه يَا مَولَايَ مُنُّوا بِفَضْلِكُمْ

عَلَيْنَا.. بِرَأْيٍ.. أَو كَلَامٍ بِحُجَّةِ!

***



هكذا لم يطلب الشاعر المقهور من السلطان (بايزيد) استخدامَ القوَّة في حماية المسلمين في الأندلس، ولا رد العدو الصليبيِّ عنهم..؛ لأنه كان يائسًا من ذلك.. حين قال: « ولم نر من إخواننا من إغاثة ». أو كما قال أبو العباس أحمد بن يوسف الصنهاجيُّ في قصيدته التي « ندَب فيها الجزيرة وذكَّر فيها النفوس بشَجْوها؛ لترسل العيون دموعها الغزيرة »: في وصف موقف المسلمين من إخوانهم الأندلسيين المحاصَرين بقوى الكفر:

ثُــمَّ اسْتَغَاثُــوا: أَلَا فُرْسَــانُ عاديــةٌ

قَالَ الصَّدَى: لَسْتُ ذَا رُمْحٍ ونَبَّـالِ![1]

فالصدى هو الذي أجاب.. وأنَّى للصدى أن يحمي المستغيث أو يلبي نداه!.. وإذن فقد كان المطلوب من (بايزيد) أن يشفع ويتوسط لهؤلاء المقهورين باعتبارهم إخوة له في الدين.. لدى (بابا روما) وأعوانه.. لعله يأمر أتباعه في الأندلس المسلوبة بتخفيف وطأة الاضطهاد عن المسلمين، أو يحثهم على الوفاء ببعض ما شرطوا لهم، حتى من قبيل المعاملة بالمثل، فقد كان هناك نصارى كثيرون يعيشون آمنين مطمئنين

(١) أزهار الرياض (١/ ١٠٦).

في كثير من بلاد العالم الإسلامي.

يقول الشاعر المجهول البائس مخاطبًا السلطان (بايزيد):

فَسَلْ (بَابَهُم) أَعْنِي المُقِيمَ بِرُومَةِ
بِمَاذَا أَجَازُوا الْغَدْرَ بَعْدَ الْأَمَانَةِ؟!

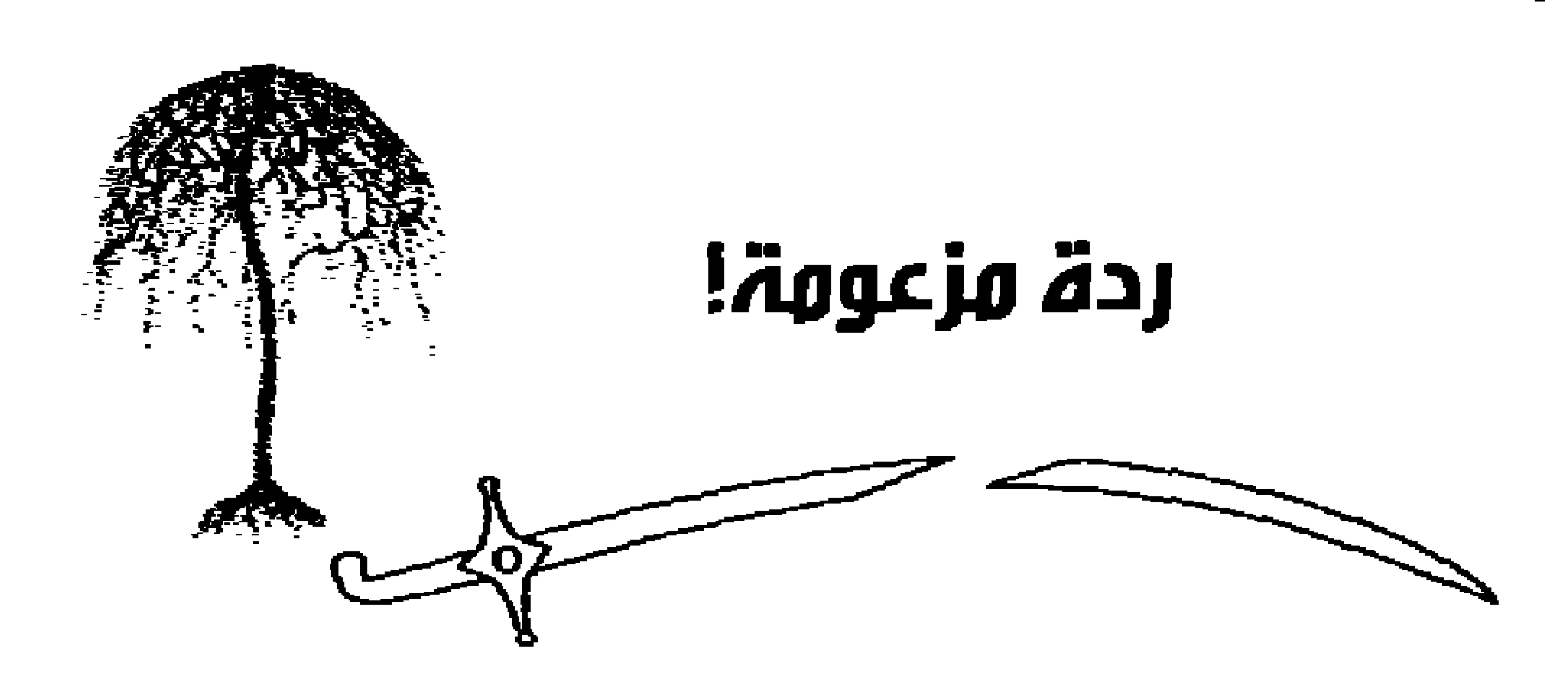
أي: هل هذا في دينهم.. أو في أي دين أو قانون؟!

وهو سؤال عويصٌ لا جواب عليه.. والتاريخ حافلٌ بغدر هؤلاء ونَكْثهم لعهودهم حتى ساعتنا الراهنة.. واسألوا اتفاقيات الهدنة مع اليهود في فلسطين..

لكن الشاعر الساذج يتعجب من غدر هؤلاء الحاقدين ويقول:

ومَنْ يُعْطِ عَهْدًا ثُمَّ يَغْدِر بَعْدَه
فَذَاكَ حَرَامُ الْفِعْلِ فِي كُلِّ مِلَّةِ!

* * *



ردة مزعومة!

والشاعر يعلم أن السُّلطان (بايزيد) كتب كتابًا إلى هؤلاء الحاقدين بشأن رعاية عهود المسلمين.. فلم يعملوا بها فيه:

وَقَـدْ بَلَـغَ المَكْتُـوبُ مِنْكُـمْ إِلَيهِـم
فَلَـمْ يَعْمَلُـوا مِنْـهُ جَمِيعًـا بِكلْمَـةِ!

وَمَـا زَادَهُـمْ إِلَّا اعْـتِدَاءً وَجُـرْأَةً
عَلَينَـا وَإِقْـدَامًـا بِـكُـلِّ مَسَـاءَةِ!

وَقَـدْ بَلَغَـتْ أَرْسَـالُ مِصْرَ إِلَيهِـم
وَمَـا نَالَـهُـمْ غَدْرٌ وَلَا هَتْكُ حُرْمَـةِ!

وَقَـالُـوا لِتِـلْكَ الرُّسْـلِ عَنَّـا بِأَنَّنَـا
رَضِينَـا بِدِينِ الْكُفْـرِ مِـنْ غَـيْرِ قَهْـرةِ

وَسَاقُوا عُقُـودَ الـزُّورِ مِمَّـنْ أَطَاعَهُـمْ
وَوَاللَّـه مَـا نَرْضَـى بِتِـلْكَ الشَّهَـادَةِ

لَقَـدْ كَذَبُـوا فِـي قَولِهِـم وَكَلَامِهِـم
عَلَينَـا بِهَـذَا الْقَـولِ أَكْـبَرَ فِـرْيَـةِ

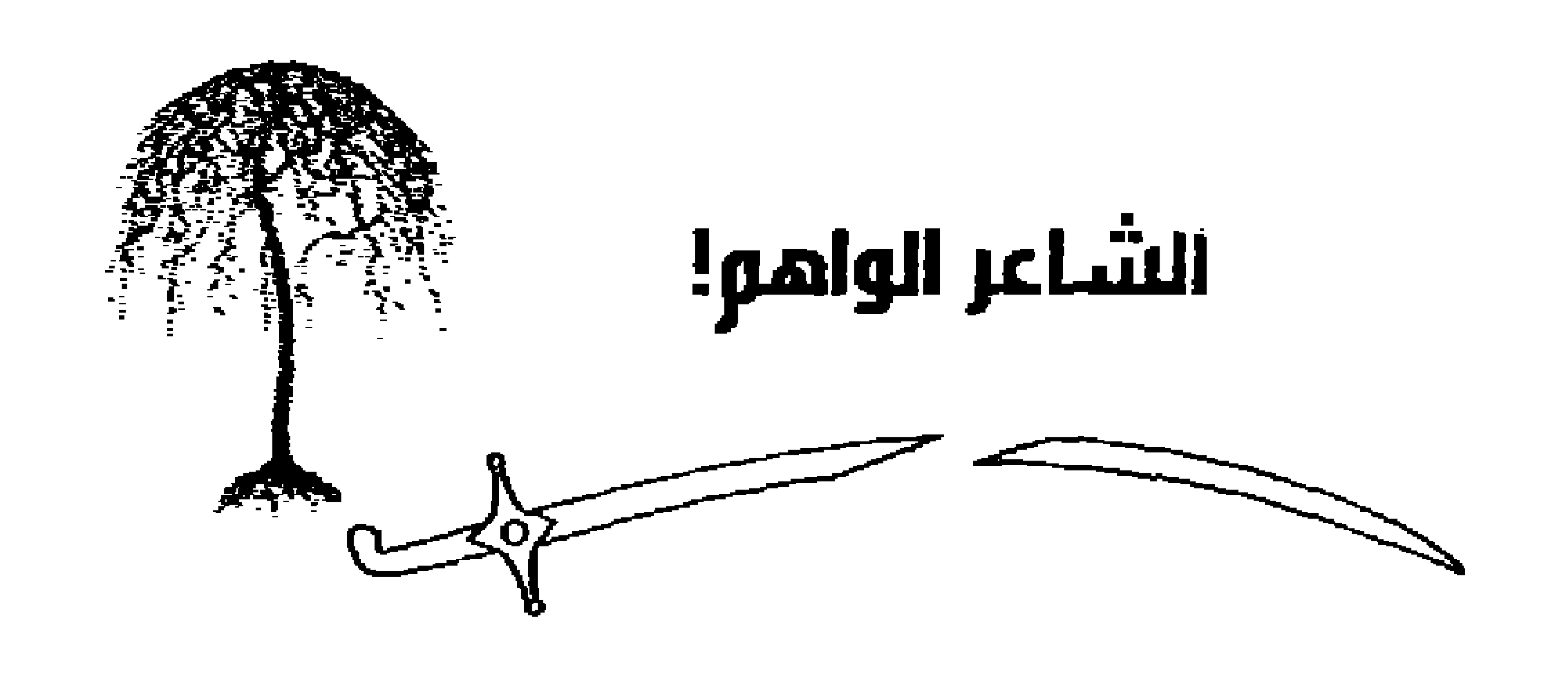
وَلَكِنَّ خَـوفَ الْقَتْـلِ وَالْـحَرْقِ رَدَّنَـا
نَقُـولُ كَمَـا قَالُـوه مِـنْ غَـيْرِ نِيَّـةِ

وَدِيـنُ رَسُـولِ اللَّـه مَـا زَالَ دِينَنَـا
وَتَـوحِيدُنَـا للَّـه فِـي كُـلِّ لـحْظَـةِ

وإذن فقد كانت هناك رِدَّةٌ.. وكانت وفود (دبلوماسية).. سألت بكل أدب عن أحوال هؤلاء المتشكِّين..، فأطْلَعهم الأسباب على عقودِ ارتداد وقَّعها هؤلاء المستضعفون..، وأفهموهم أنها مسألةٌ داخليَّةٌ..، وأن هؤلاء قد أصبحوا نصارى تحت سلطانهم.. فانصرفت تلك الوفود في سلام..

والآن.. ما هو المطلوب الأخير أيها الشاعر الذي أدمى قلوبَنَا بهذا العرض العَفْويِّ الساذج لمأساة داميةٍ.. ماذا تريد من السلطان (بايزيد) وأنت تعلم أنه لا حرب لديه.. وأن خطابه إلى الأسبان لم يؤثر فيهم؟ إنه يوجز المطلوب بقوله:

فَهَـا نَحْـنُ يَـا مَـولَايَ نَشْكُـو إِلَيكُـم
فَهَـذَا الَّـذِي نِلْنَـاهُ مِـنْ شَـرِّ فِرْقَـةِ
عَسَـى دِينُنَـا يَبْقَـى لَنَـا وصَلَاتُنَـا
كَمَـا عَاهَدُونَـا قَبْـلَ نَقْـضِ الْعَزِيمَـةِ
وَإِلَّا .. فَيُجْلُونَـا جَـمِيعًا مِنْ أَرْضِهِـم
بِـأَمْـوَالِنَـا لِلْـغَـرْبِ دارِ الأَحِـبَّـةِ
فَـإِجْلَاؤنَـا خَـيرٌ لَـنَـا مِـنْ مُقَـامِنَـا
عَلَى الْكُفْـرِ فِـي عِـزٍّ عَلَـى غَـيرِ مِـلَّةِ
فَهَذَا الَّذِي نَرْجُـوهُ مِـنْ عِـزِّ جَاهِكُـم
وَمِنْ عِنْدكُمْ تُقْضَـى لَـنَـا كُلُّ حَاجَـةِ



الشاعر الواهم!

لقد كنتَ واهمًا أيها الشاعر المسكين.. فإنَّ قصيدتَك تلك لم تحرك ساكنًا، ولم تثمر ثمرةً..

وكل ما جنيته منها أنها سُجِّلت في الكتب التي حكت فصول المأساة، بل إن أحد الذين روَوْها وهو المقري في (أزهار الرِّياض) عابها من جهة حظها من البلاغة وقال: « انتهت الرسالةُ بحمد اللَّه، وكتبتُها وإن كانت ألفاظُها غير بليغة تكميلًا للفائدة »[1].

والعجيب أن يبحث المقري عن البلاغة في هذا الموقف العصيب.. ويخبرنا أن أهل الأندلس في عُنفوان أمرهم كانوا في غاية البلاغة، وأنَّ البلاغةَ لم تزل شمسها بالأندلس ظاهرةَ الآيات إلى أن استولى عليها العدو، وعطَّل من أهل الإسلام الرواحَ إليها والغدوّ.

ولعمري! إن هذا الشاعر المجهول الأسيف لهو أبلغ في موقفه وأصدق في عاطفته من شعراء البديع، وكتَّاب السَّجع والتجنيس الذي خدَّروا العزائمَ.. وشغلوا الأذهان بفنون

(١) أزهار الرياض (١/ ١١٥).

القول ومهارات اللسان.. وقد كنا نتمنَّى أن تكون لأهل الأندلس بلاغة أخرى، تسجلها السيوفُ والسهامُ.. إلى جانب بلاغة الألسنة والأقلام..

وهذا أوان الختام!

***



كتب للمؤلف

مؤلفات:

١ – ابن شرف القيرواني الشاعر الناقد، الطبعة الأولى، النادي الثقافي الأدبي – مكة.

٢ – أثر الإسلام في شعر الفرزدق، الطبعة الأولى، مكتبة الإصلاح – الدمام.

٣ – الأسرة في الإسلام، الطبعة الرابعة، دار البيان – جدة.

٤ – الإسلام والمشكلة الجنسية، الطبعة الثالثة، دار الاعتصام – القاهرة.

٥ – الإسلام ومشكلات الشباب، الطبعة الأولى، دار السلام للطباعة والنشر – القاهرة.

٦ – الأنبياء في القرآن، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة.

٧ – الإيمان في القرآن، الطبعة الثالثة، شركة مكة للطباعة والنشر – مكة.

٨ – دراسة الحب العفيف في الأدب العربي، الطبعة الأولى، دار المعارف – القاهرة.

٩ – شخصية المسلم، الطبعة السابعة، دار البيان – جدة.

١٠ – المجتمع الإسلامي، الطبعة الثالثة، دار البيان – جدة.

١١ – من روائع البيان النبوي، الطبعة الأولى، إدارة إحياء التراث الإسلامي – قطر.

١٢ – هكذا تحدث السلف، الطبعة الأولى، شركة مكة للطباعة والنشر – مكة.

١٣ – الوقوف على الأطلال بين شعراء الجاهلية والإسلام، الطبعة الأولى، النادي الثقافي الأدبي – مكة.

محققات:

١ – الاكتفا في مغازي رسول اللّه والثلاثة الخلفا للكلاعي (١/ ٢)، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي – القاهرة.

٢ – التبصرة لابن الجوزي (١/ ٢)، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربية –

القاهرة، وسيصدر قريبًا عن دار السلام بالقاهرة.

٣ - ذم الهوى لابن الجوزي، الطبعة الأولى، دار الكتب الحديثة - القاهرة.

٤ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحي (١/ ٢)، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة.

٥ - السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤)، الطبعة الأولى، دار السلام للطباعة والنشر.

٦ - شمائل الرسول لابن كثير، الطبعة الأولى، دار السلام للطباعة والنشر.

٧ - قصص الأنبياء لابن كثير، الطبعة الثالثة، دار القبلة - جدة.

٨ - اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير - الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار التأليف - القاهرة.

٩ - الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي، الطبعة الثانية، شركة مكة للطباعة والنشر - مكة.

***

رقم الإيداع

٢٠١٠ /١٣١٦٦

الترقيم الدولي I.S.B.N

978 - 977 -342 -912 -6

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . .   السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « كيف ضاعت الأندلس؟ : نصوص تحكي سر المأساة » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًا إلى الأمام .

* فهيًا مارس دورك في توجيه دقة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-

الاسم كاملاً : .... الوظيفة : ....

المؤهل الدراسي : .... السن : .... الدولة : ....

المدينة : .... حي : .... شارع : .... ص.ب: ....

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

....

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بنَّاء بين الناشر والقارئ)

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

- هل صادفت أخطاء طباعية أثناء قراءتك للكتاب ؟

☐ لا يوجد ☐ نادرًا ☐ يوجد أخطاء مطبعية

لطفًا حدد موضع الخطأ ....

....

....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على

e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا